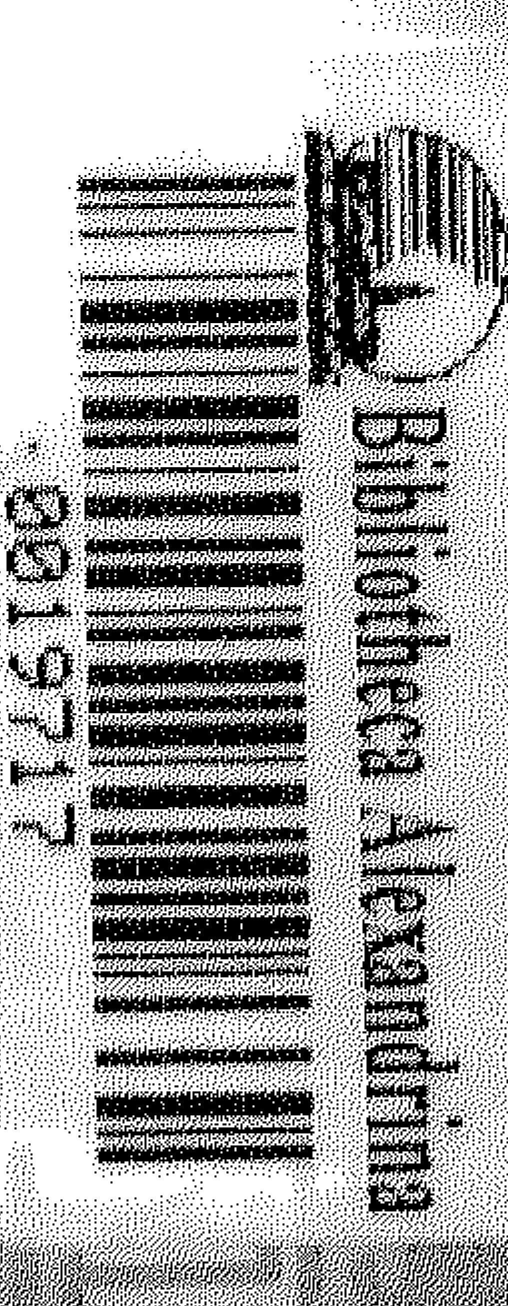
الوجه الاخر

لتعاليم المسيح



الوجه الآخر لتعاليم المسيح

دكتور القس إكرام لمعى



طبعة ثانية

الوجه الآخر لتعاليم المسيح

صدر عن دار الثقافة - ص. ب. ٢٢٩٨ - القاهرة

. ١ / ٤٧٦ ط ٢ / ٢ - ٧ / ٩ . - ٩٤

رقم الايداع بدار الكتب : ٣٩٧٣ / ١٩٩٤

دولى: ٩٧٧ - ٢١٣ - ٢١٥ - X

طبع فى سيويرس

تقديم

لاشك فى أنه إذا وقف عدد كبير من الناس أمام منظر واحد ، فإن كل واحد سيصف المنظر بصورة تختلف عن الوصف الذى يرسمه الآخرون .. !

فما بالك إذا وقفت أمام كلمة الله .. !! إن كل واحد منا يفهم الكتاب بصورة خاصة جدًا .. ولكن غنى كلمة الله ، لا يعنى أن يفسر كل منا الكتاب بطريقته الخاصة . فهناك أمور وأفكار قد استقرت فى فكر الكثيرين عن الله أو عن سائر الموضوعات .. وهى ليست بالضرورة أفكاراً صائبة .. !

وهناك عدد من المفكرين لهم أفكارهم الخاصة أيضاً ... فمثلاً بشَّر نيتشة بموت الله ! وقال آخرون كلا ما لا يستطيع القلم أن يكتبه .. ولكن الأمر يزداد خطورة عندما نجد تشويها .. أو على الأقل فهمًا خاطئا لكلمة الله !

والكتاب الذى بين يديك ، ياعزيزى القارىء ، يناقش بعض القضايا مناقشة موضوعية من خلال رؤية جديدة لتعاليم السيد المسيح له المجد . وهل كانت التعاليم للزمان الذى ظهرت فيه (منذ نحو ألفى سنة) فحسب ، أم أنها صالحة لكل زمان ومكان .. ويركز الكاتب فى عرضه للقضايا التى اختارها على تعاليم الرب يسوع وارتباطها بالمجتمع المصرى مصححاً بعض المفاهيم الخاطئة التى توارثناها .

دار الثقافة

إهداء

إلى أبى وأمى

الفهرس

تمهيد

أرجو عندما تبدأ فى قراءة هذا الكتاب أن تقرأه برؤية أوسع متحررًا من التقاليد التى تؤثر عليك . فكر فى الكتاب المقدس على أنه نخاطب هذا العصر . وليس مجرد كتاب تاريخى . إن هذا الكتاب ما هو إلا محاولة لقراءة كلمة الله بمفهوم حياتى .. وقد وجدتها أكثر حيوية وتجاوبًا مع مشاكلنا مما كنت أظن أو أفتكر . وما أقوله فى هذا الكتاب ليس أحكامًا نهائية لكنه مجرد فتح باب للمناقشة والحوار حول مناسبة كلمة الله لعصرنا ومدى حيويتها وقدرتها على التجاوب مع المشاكل الحياتية اليومية . ولا أزعم أن هذه المحاولة على صواب دائماً فيما وصلت إليه فكلنا معرضون للخطأ . لكن مجرد المحاولة عمل إيجابى . وأعتقد أن هذه المحاولة تقود إلى تطبيق عملى جيد للكتاب المقدس فى حياتنا اليوم .

إن مشكلة الغالبية العظمى من قارئى الكتاب المقدس هى احساسهم بصعوبة تنفيذ وصايا المسيح بشكل حرفى وذلك لسمو تعاليم المسيح ، وعدم القدرة على تطبيقها فى مجتمع مادى ملىء بالسلبيات والانحراف . لكننى اقول إننا إذا فهمنا روح المسيح وفكره سيكون التطبيق أسهل مما نتصور . وأعتقد أن ما قاله المسيح فى الموعظة على الجبل ليس مجرد قوانين لملكوت السموات غير قابلة للتطبيق على الأرض ، لكنها نماذج حياتية يمكن أن نعيشها لو فهمناها بصورة صحيحة . فهى ليست مُثلا لا يمكن الوصول إليها ، لكنها خطوط عريضة لما يمكن أن نحياه . وكما قال أحد اللاهوتيين « نحن بحاجة إلى غسل وجه المسيح » . وفى مصر نحن أكثر الناس احتياجًا لتطبيق هذا النداء ، وغسل وجه المسيح من أتربة أفكارنا الخاطئة التى علقت به ومن غبار انعكاساتنا الاجتماعية . فنحن بحاجة لأن يظهر لنا وجه المسيح فى ضيائه ونقائه ، لمناسبته لكل عصر ومكان . لقد تصورنا وجهًا للمسيح وضعناه فى قالب جامد من الأعراف والفكر الاجتماعى والسياسى والتاريخى .

وإذ أحاول أن أقدم الوجه الآخر للمسيح فى هذا الكتاب ، فإنى أقدمه وجهًا مختلفًا عن القوالب الجامدة والأُطر الميتة ، وليس معنى هذا انى ضعيف وجهًا جديدًا للمسيح لكن كل ما فعلته هو أنى كشفت النقاب عن الوجه القائم الحي له ، والذى أضعناه لسنين هذا عددها .

المؤلف

مقدمة

يقول خبراء علوم الاتصال : إن جمهور الناس لا يستمعون إلى ما يقوله المتكلم ، بل يستمعون إلى ما يريدون هم أن يسمعوه . فكل واحد يتلقى ما يريده بحسب خلفيته الثقافية والحضارية ، وإمكاناته الفكرية ، وشغفه بالمادة المقدمة ، وموقفه من المتكلم . ولقد تعرَّض الكثيرون من السادة والخطباء والوعاظ ، ومن قبلهم الرسل والأنبياء ، إلى سوء الفهم من جمهور المستمعين . والمسيح كان واحدًا من الذين جذبوا انتباه الناس بأحاديثه وأسلوب عرضه وتحليله للمواقف ، سواء كان هذا فى مواعظه الشهيرة للجماهير الغفيرة ، أو لأعداد قليلة من البشر ، أو فى جلساته الثنائية . ومع هذا — كان معرضًا لسوء الفهم من المستمعين فى مواقف كثيرة . ولذا حاول المسيح — أكثر من مرة — أن يصحح سوء الفهم هذا ، وسأذكر — بالتحديد — موقفين :

الأول عندما تحدث يسوع كثيرًا عن الناموس مقارنًا إياه بتعليمه ، مستخدمًا جملته الشهيرة : « سمعتم أنه قيل .. أما أنا فأقول » . ولقد كان وقع هذه الجملة على الآذان ، مدعاة لسوء الفهم ، إذ ظنوا أن السيد المسيح يريد أن ينقض الناموس ويلغيه . لذلك أراد المسيح أن يصحح هذا المفهوم فقال : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل . فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل »[1] .

والموقف الثانى الذى أراد يسوع تصحيحه ، هو سوء فهم الناس له عندما تحدث كثيرًا عن الحب والسلام ، وتحويل الخد الآخر وترك الرداء ، فظنوا أنه ينادى بالخنوع والذل وترك الحقوق وفقدان الكرامة . لذلك قال : « لا

---

(١) مت ٥ : ١٧ و ١٨

تظنوا أنى جئت لألقى سلامًا على الأرض . ما جئت لألقى سلامًا بل سيفًا »[1] ، مستخدمًا نفس تركيب الجملة : « لا تظنوا أنى جئت لانقض الناموس .. » وتعبير « لا تظنوا » يوضح أنه يصحح مفاهيم لأناس سمعوه جيدًا ، لكنهم لم يبذلوا جهدًا لمحاولة فهمه بصورة صحيحة . ورغم أن السيد المسيح صحح هذه المفاهيم فى وقتها ، إلا أنه حتى اليوم يوجد من يسىء فهم كلماته المكتوبة فى الانجيل ، وهذا ما يسميه علماء التفسير بالتفسير النفسى والاجتماعى للكتاب ، فالبشر يأتون إلى الكلمة بخلفياتهم النفسية والاجتماعية ويسقِطون عليها ما يعانون منه ، فيخرج فهمهم للكلمة مشوبًا بكثير من الأخطاء .

ولا شك فى أن تاريخ الإنسان المصرى بما فيه من غزاة وقهر وديكتاتورية ، وطبيعة إنسان النهر المسالم ، جعل تكوينه النفسى يميل إلى الإستكانة والاتكالية والمسالمة . كذلك تاريخ الكنيسة بما فيه من تقوقع على الذات وانسحاب إلى الداخل ، واتجاه نحو الروحانيات والطقوس أو اعتبار العالم والمادة نجاسة ، جعل البشر يتجهون إلى الكلمة يبررون بها ضعفهم وخذلاتهم وهروبهم . فركَّزوا على الجانب الذى يبدو أنه يدعو للمسالمة فيها ، وفسروا كلمات المسيح بطريقتهم وحمَّلوها فوق ما تحتمل لتكون خطاب التبرير الذى يواجهون به المجتمع عندما يسألهم : لماذا لا تشاركون فى الحياة العامة ؟ لماذا تتخاذلون وتتراجعون أمام الحوار والتفاعل مع الآخرين المختلفين معكم ؟ لماذا تغلقون أبوابكم على ذواتكم ؟!

وهذا الكتيِّب هو محاولة لفهم الجانب الآخر من المسيحية ، أو الوجه الآخر للمسيح ، والذى غاب عن الأغلبية العظمى من البشر ، وكان لغيابه

---

(١) مت ١٠ : ٣٤

خسارة فادحة للعالم المسيحى وغير المسيحى ، مع أنه موجود وواضح فى الإنجيل . بل أستطيع أن أدّعى أنه الوجه الحقيقى للسيد المسيح ، الذى لم تشوهه خلفياتنا الحضارية والثقافية والاجتماعية .

وسوف نتعرّض فى هذا الكتيّب للقضايا الملحة فى عالمنا المعاصر ، وموقف المسيح منها ، مثل العنف والجنس وحقوق الانسان والديمقراطية والحق والعبادة .

الفصل الأول

أما أنا فأقول

فى إحدى الجلسات التى ضمت عددًا من المثقفين ، فُتح باب المناقشة حول مشاكل العصر ، وموقف الإنسان المؤمن من التسيُّب الموجود فى المجتمع ، والانحراف الذى يطل برأسه من خلف درج مكتب ، أو طرف لسان رئيس عمل ، أو من خيوط متشابكة معقدة فى الأسرة أو فى العمل أو فى البيئة المحيطة . وطُرحت أسئلة كثيرة ، مثل : ما موقف الإنسان المسالم من الاستفزاز المستمر ، وخاصة أن الصفح الدائم يجعل المستفز يتمادى ويتعامل بأسلوب غير أخلاقى . فما معنى الصفح فى مجتمع لا أخلاقى ؟! وتساؤل أخر ... فى مجتمع استهلاكى أصبح الذى معه القرش يساوى قرشًا .. هل يرهق الإنسان نفسه فى العمل على حساب صحته وأسرته وعلاقته بالله ؟! ... وغيرها كثير .

وكان السؤال الرئيسى : كيف يحاسبنا الله ؟!

والمأساة الحقيقية التى نعيشها هى طريقة فهمنا لله ولعلاقته بنا من خلال الوصية . فنحن نتفق على أن الإنسان يعيش حياة العصيان لله ، فهو يعيش حياة الفجور وعدم المبالاة بقوانين وفرائض ووصايا الله ، التى أعلنها لكى يحوِّل الانسان إلى طاعته ، ولا شك فى أننا نتفق على أن الوصايا الإلهية هى أساس الطاعة . لكننا نتصور أن الله وهو يقدِّم لنا مجموعة من الوصايا الجامدة والعبادات كالصلاة والصوم والصدقة ، يجلس ليراقبنا ولا هدف له إلا إحصاء أخطائنا ومحاسبتنا عليها . وهكذا تحكم الوصية العلاقة بين الله والانسان ، ولا توجد علاقة مباشرة بينهما . فعلاقة الله بالوصية أنه مصدرها ، وعلى الإنسان أن يتقبلها ، والوصية تربط بين الاثنين . فإن أطاع الانسان الوصية بحرفيتها

دون تصرف منه فهو عبدٌ لله أما إذا حاول أن يفهم روح الوصية وأن يُعْمل فكره فيها ، كان مضادًا لله لذلك يقف العبد أمام الوصية صاغرًا ، محاولاً تفسيرها وتطبيقها على حالته الخاصة ، وفى معظم الاحيان يفشل . لقد حاول اليهود تفسير الوصايا العشر فى التلمود ، وذكروا كل حالة يمكن أن تقع تحت الوصية بتفاصيل غاية فى الدقة والغرابة . فهم يحددون المسافة — بالضبط — التى يسيرها المؤمن يوم السبت ، ووزن الذهب الذى تحمله المرأة فى حليها يوم السبت .. وفى حالة كذا يكون التصرف هكذا .. الخ . وهكذا أصبحت الوصية فى تفسيرها ألف وصية ووصية .. ماذا تلبس المرأة ؟ هل تغطى شعرها أم لا ؟ ... الخ . وتظهر المشكلة عندما يجد الانسان نفسه فى موقف غير منصوص عليه . وهنا يقع فى مأزق ، وربما يقع ضحية لمفسرين مغرضين أو سطحيين ، ولا يعرف إن كان تصرفه خطأ أم صواب ، فيعيش يعانى من عقد الذنب التى تترسب فى داخله .

والتعاليم التى نتلقاها اليوم تصوِّر الله كائنًا مجهولاً مختفيًا خلف كلماته الموحى بها ، وليس على الانسان إلا أن يتعامل مع الكلمات . وهكذا نجعل الوصية هدفًا فى ذاتها وليست وسيلة لهدف ، فنتعب لكى نوفى الوصية حقها ، فنصبح عبيدًا للوصية ولسنا عبيدًا لله . وبهذا أصبح تفسير إنسان ما للوصية سببًا فى تكفير أخيه الإنسان واستبعاده من قائمة المؤمنين بالله . لقد ألغى الإنسان بفكره وعبقريته وأصبح كائنًا يتحرك فى إطار الوصية ، فحمُد بتفاسير البشر . واليوم نرى الوصية بحسب ما فسرها الأقدمون — سيفًا مسلَّطًا على رقابنا . فالمفسرون الأقدمون يتحكمون فى ماذا نلبس اليوم ؟ وماذا نأكل ؟ وماذا نشرب ؟ كيف نتكلم ؟ وكيف نعبد ؟ وكيف نسلك ؟ وإذا حاول إنسان ما أن يحقق إنسانيته فى علاقته مع الله ، ويَنْفذ إلى جوهر الوصية لا شكلها ، أصبح عبدًا ضالاً خارجًا عن الدين ، فتفسير الأقدمين ، هو التفسير الإلهى للوصية . **لكن السؤال هو : هل هذا هو الوجه الحقيقى للمسيح ؟!**

لقد قابل السيد المسيح مواقف كثيرة فى حياته كان عليه أن يقدِّم فيها رأيه عن العلاقة بين الانسان والله والوصية . ففى مرة[1] رأى مريضًا وأحس أن لديه رغبة فى ابرائه ، وقدرة على شفائه لكن المشكلة تمثَّلت فى أن اليوم كان سبتًا . فإذا شفاه كان كاسرًا للوصية عاصيًا لله ، ووإذا تركه أحس بالألم فى داخله . **وهنا تأمَّل المسيح فى الوصية لا كهدف فى ذاتها لكن كوسيلة وتأمَّل فى الله وهو يضع الوصية ... هل وضعها لخير الإنسان أم لضرورة ، وفكَّر أيهما أهم فى نظر الله ، الإنسان أم حرفية الوصية . وفى لحظة وصل إلى قرار : هو أن السبت لأجل الإنسان وليس الإنسان لأجل السبت ، وأنه يحل فعل الخير فى السبت . وتقدم وشفى الإنسان رغم انتقادات الفريسيين (إحدى الجماعات الدينية المتشددة) ، ومحاولة محاكمته من رجال الدين ، والتشاور عليه لكى يهلكوه .**

وفى مرة أخرى لاحظ الناس أن تلاميذ المسيح لا يؤدُّون الفرائض[2] الدينية المطلوبة منهم ، لا يغتسلون ، ولا يصومون مثل تلاميذ باقى الانبياء . وأن المسيح يجلس مع العشارين والخطاة ، فقال لهم : « إذهبوا وتعلموا ما هو إنى أريد رحمة لا ذبيحة[3] . وفكر المسيح هو أن الله لا يحصى لنا عدد مرات تنفيذ الوصايا ولا عدد مرات عصياننا . فمشكلة الإنسان ليست هى تنفيذ الوصية من خارج ، لكن العلاقة الصحيحة بينه وبين الله : « فسمعتم أنه قيل (حرفية الوصية) ... أما أنا فأقول (التفسير الروحى للوصية) » . لقد نادى المسيح لا بأن نتوب عن خطايانا ونرجع لله فحسب ، بل نتوب أيضًا عن نظرتنا للوصية كسيف مسلَّط علينا ممسوكًا بيد الله . فنحن لسنا

---

(١) مر ٣ : ١ — ٦

(٢) مت ٩ : ١٤

(٣) مت ٩ : ١٣

عبيدًا للوصية لكننا أبناء لله ، نطيع الوصية لا بذلة العبيد بل بخضوع الأبناء .
إن المسيح فى تعاليمه أعطى الإنسان مكانته وقيمته كوكيل لله فى الأرض ، وأعطاه الحق فى أن تكون له علاقة مباشرة مع الله لا يعوقها عائق .

إن المشكلة التى نعيشها اليوم هى أننا نتخيل إلهًا صغيرًا بحجم تفكيرنا ، نُشكله بحسب تشكيلنا النفسى والاجتماعى ، فنصنع إلهًا لنا ونعبده . وهذا لا يختلف كثيرًا عن عبادة الأصنام فى القديم . فنحن نصنع إلهًا من تخيلنا ثم نعبده ، وندين الناس من خلاله . هذا الأسلوب جعل الناس يتشككون فى كل شىء من حولهم ، أصبح لا حول لهم ولا قوة ، إذ هم يحسون أنهم فى كل لحظة يكسرون وصية ، وكلما كسروا وصية أصبح الإحساس بالذنب سيدًا عليهم وترسَّبت عقد الذنب فى دواخلهم ، وأثَّر ذلك على إنطلاقهم الروحى والفكرى وعلى علاقتهم بالله . فقد أصبح الناس يُحسُّون أنهم يحملون ذنوبًا جسيمة ، وهم يأتون إلى الله . مع أنهم ـــ حقيقة ـــ لا يحملون كل هذا الكم من الذنب . وبرغم أنهم أبناء يعيشون كالعبيد ، لأنهم اختاروا لأنفسهم عقائد وديانات تستعبدهم من خلال فرائض ووصايا .

وهكذا وُجد ثلاثة أنواع من البشر : **الأول** رفض الله رفضًا نهائيًا ، وصرَّح بعدم وجوده وأصبح هو مرجع حياته . **والثانى** ألقى بنفسه تحت نير الوصايا والفرائض وأصبح غير خلاَّق ، فعاش حياة التخلف والطفولة الإيمانية . **والثالث** يعيش الصراع بين القيم الدينية والواقع ، ولا يعرف كيف يعيش الوصية بذهن مستنير كابن لله .

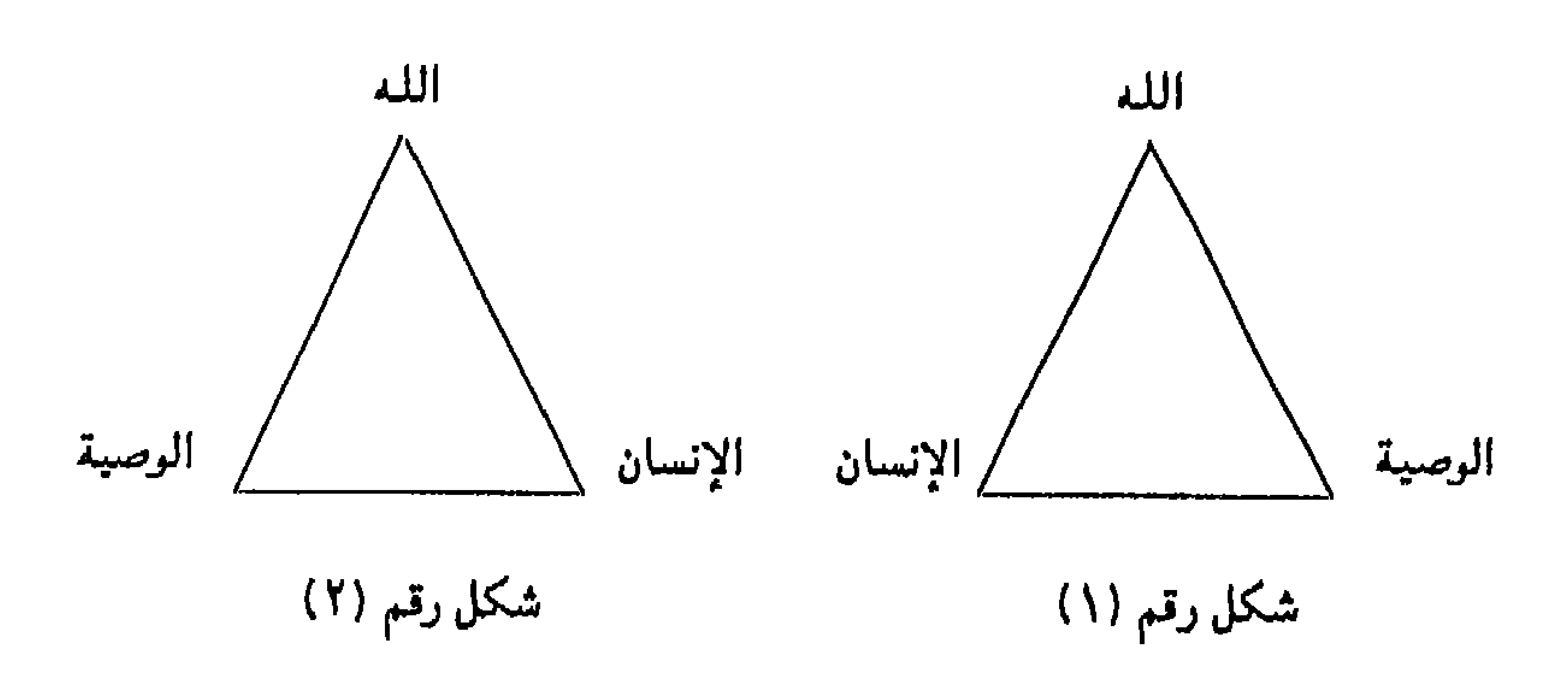
لكن دعوة المسيح هى إلى نوعية أخرى من الحياة تختلف عن هذه النوعيات الثلاث . إنه يدعو الإنسان إلى حياة يكون فيها حر الإرادة رافع الرأس ، مع إله يحترم إنسانيته ويعامله كابن ، ويفضِّله على حرفية الوصية . يثق فيه كاملاً ـــ فقط يوضح له الاتجاه العام الذى يريده أن يسلك فيه ، والهدف الذى يراد الوصول إليه ، ثم يترك له كيفية وسبل التطبيق : « الحق .

الحق أقول لكم من يؤمن بى فالأعمال التى أنا أعملها يعملها هو أيضًا ويعمل أعظم منها [١] » .

وهكذا يعلّمنا المسيح مبدأين ، يكونان أساسًا لنا ، فى الفصول التالية :
المبدأ الأول : أن الوصية وسيلة فى ذاتها وليست هدفًا .
المبدأ الثانى : أن الإنسان أهم من الوصية .

والترتيب اختلف من الله ـــ الوصية ـــ الإنسان فى العهد القديم شكل رقم (١) ، إلى الله ـــ الإنسان ـــ الوصية ←ـــ فى العهد الجديد شكل رقم (٢) .

الله ـــ الوصية ـــ الانسان ـــ شكل رقم (١)
الله ـــ الانسان ـــ الوصية ـــ شكل رقم (٢)



شكل رقم (١)　　شكل رقم (٢)

---

(١) يو ١٤ : ١٢

الفصل الثانى

المسيح والسيف

عندما نفكّر فى ملامح الإنسان المؤمن ـــ حسب تصورنا ـــ نستطيع القول ـــ إنه ذلك الإنسان المسالم جدًا ، المتقوقع على ذاته ، الذى يترك حقه للآخرين طلبًا للسلامة ... الذى له علاقة فريدة قوية مع الله ، ولا يحب الظهور والعمل الاجتماعى ، ويحفظ نفسه من العالم ؛ من الموسيقى والمسرح والفن بوجه عام ، يقضى أوقاتًا طويلة فى التعبد والصلاة ودراسة كلمة الله ، ويترك لله إدارة شئون حياته . يسلّم له كل شيء ، وقاعدته فى الحياة أن الله يجعل كل الأشياء تعمل معًا لخيره ، ودون تدخل مباشر منه .

ورغم أن هذه الصورة تبدو جميلة إلى حد ما ، إلا أنها ليست الصورة التى يريدها المسيح من تابعيه . فهى الصورة التى اعتقد البعض خطأً أنها رؤية المسيح للمؤمن ، بينما هى ذات الصورة التى رفضها المسيح بقوله : « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلامًا على الأرض . ما جئت لألقى سلامًا بل سيفًا . فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والإبنة ضد أمها والكنة ضد حماتها . وأعداء الإنسان أهل بيته . من أحب أبًا أو أمًا أكثر منى فلا يستحقنى . ومن أحب ابنًا أو إبنه أكثر منى فلا يستحقنى . ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى . ومن وجد حياته يضيعها ومن أضاع حياته من أجلى يجدها »[(١)] .

وهنا وبكل وضوح يعلن المسيح حاجته لإنسان قوى قادر على إتخاذ أصعب

---

(١) مت ١٠ : ٣٤ ـــ ٣٩

القرارات فى حياته ، والصراع مع الذات والمجتمع . إنه يقول ــ بصراحة ووضوح ــ جئت لأفرّق وجئت بصليب وجئت بموت . والصليب هنا معناه الألم الاختيارى ، أى الألم الذى يختاره الإنسان بمحض إرادته ليحقق من خلاله أهدافًا عليا . وهذه الأمور لا تحتاج إلى إنسان ضعيف غير ناضج ، غير قادر على المعاناة ، بل يحتاج إلى محاربين أشداء .

فى قصيدة من الأدب الشعبى الأمريكى ، سمعتها من مغن شعبى فى أحد شوارع نيويورك ، حكاية واقعية لسجين حكم عليه بالسجن لأنه ثار لكرامته وقتل جاره ، وأحس بدنو أجله فدعا ابنه إليه ، وقال له :

إن حياتى تغرب فى الوقت الذى
فيه تشرق شمس حياتك
فَعِدنى ياولدى ألا تفعل ما فعلته أنا
عندما ترى الاضطراب قادمًا إبتعد عنه وتوارى
حوّل خدك الأيسر لمن يضربك على الأيمن
ليس من الضرورى أن تقاتل لتثبت أنك رجلاً .

ومات الرجل وشب هذا الولد مسالمًا يضع صورة أبيه أمامه وقد كتب فى أسفلها كلمات القصيدة . وبعد فترة ذهب إلى الجيش . وفى أحد الأيام تعرَّض لموقف يمس كرامته وإحساسه بالرجولة من زميل له فثار وغضب وتقاتلا معًا ، ثم دخل إلى خيمته وأخذ صورة أبيه وهو يبكى وكتب على ظهرها هذه الكلمات :

لقد وعدتك ألا أفعل ما فعلته أنت .
رأيت الاضطراب قادمًا فابتعدت وتواريت
حوَّلت خدى الأيسر لمن ضربنى على الأيمن
أنا أفهم أن هذا ليس ضعفًا
لكننى أفهم أيضًا

أنه يجب أحيانًا أن أقاتل
لأثبت أننى رجلاً

إن المسيحية لا تعنى أبدًا الخنوع والاستسلام ، لكنها تعنى السلام من موقع القوة . عندما نبتعد عن الشر فليس هذا جبنًا ، وعندما نصارع لأجل الحب ونقاتل لأجل السلام فهذا ليس شرًا . والمسيح فى كلماته يحدد ملامح الإنسان المؤمن الجديد باتباعه : إنه ذلك الإنسان الذى لديه استعداد للصراع مع أقرب الناس إليه . إن السيف الذى يقدمه المسيح هو كيف يتخذ الإنسان قرارًا واضحًا حاسمًا مع كل علاقة تعطله عن علاقته بالله . والمسيح يرفض الإنسان الضعيف ، حتى لو كان هذا الضعف تجاه أسرته : « جئت لأفرّق الانسان ضد أبيه والابنة ضد أمها ... » . هناك زوجات غير مقتنعات بحياة أزواجهن مع الله أو العكس ... أو آباء مع أولادهم أو العكس ... وهكذا . والإنسان القادر على اتخاذ قرار وموقف **واضح ومحدد مع أقرب الأحباء ، هو إنسان ناضج له أولويات واضحة ، قادر على الفصل بين الفكر والعاطفة ، ولديه القدرة على اتخاذ قراره فى الوقت المناسب وبالصورة المناسبة** . إنه ليس بالإنسان المستكين الذى يمسك العصا من منتصفها ويرضى جميع الأطراف . وليس المقصود هنا أيضًا أن يقطع الإنسان علاقته مع كل المخالفين له أو المختلفين معه ، لكن المطلوب هو أن يوضّح الإنسان اتجاهه وهدفه كالسيف ، حتى لا يكون بلا لون أو طعم أو رائحة .

والمؤمن الأمين ــ فى نظر المسيح ــ هو ذلك الذى يكون لديه استعداد للألم من أجل قيم سامية . والألم لا يفرض على الإنسان السلبى بل على الإيجابى الذى يتقدم ويحتك بالآخرين ، ويجاهد لأجل تحقيق ما يفكر فيه ... فالألم هنا اختيارى . فمثلاً ، جرّب بعض العلماء للأدوية التى اكتشفوها على أنفسهم معرضين حياتهم للخطر ، لكى يحققوا هدفًا إنسانيًا ساميًا ، هو القضاء على مرض ما وتحرير الإنسانية منه .

إن كل باحث عن الحقيقة يتألم للوصول إليها . والذى لا يهمه البحث عن الحق

لا يتألم . وبقدر ما يكون الإنسان ناضجًا وقادرًا على الفهم وله موقف من الحياة ، تكون آلامه التي يحملها باختياره أكبر وأكثر ، لأنه « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » [1] . والإنسان المؤمن — في فكر المسيح — ليس فقط الذي لديه استعداد للألم فقط ، بل للموت أيضًا في سبيل ما يؤمن به . فهو يقول : « من وجد حياته يضيعها . ومن أضاع حياته من أجلي يجدها [2] » . فالذي يبحث عن الحياة ويحرص عليها يجبن من الموت ، لن يحقق شيئاً يذكر ولن يعيش حياة تستحق أن تعاش ، بل تكون حياته أقرب إلى الموت ، فالذي يجد حياته يضيعها ، أما الذي يضع رأسه على كفه ويضيع حياته لأجل أهداف سامية ، فسوف يستمتع بحياته لأنه حقق بها أشياء . وحتى لو مات لأجل الهدف ، فحياته ستستمر في الأهداف التي حققها . لقد أحبت ليليان تراشر شخصًا ما حبًا جمًا ، لكن كان الهدف الذي وضعه الله أمامها هو أن تأتي إلى مصر ، وتؤسس ملجأ للأطفال الفقراء وصارعت مع حبيبها الذي رفض أن يأتي معها إلى مصر . وفي ليلة الوداع بكت كما لم تبك من قبل ، وكتبت في مذكراتها بعد ذلك : في هذه الليلة ماتت ليليان تراشر . إن موت ليليان عن هذا الحب جعل حبها للأطفال حبًا متدفقًا لا ينضب .

إن الذي يضع أمامه أهدافًا عظامًا عليه أن يموت عن أشياء يحبها ، لكي يحقق هذه الأهداف . إن الفرق بين مؤمن وآخر هو في عدد المرات التي ماتها ليحقق أهدافًا قبل أن تنتهي حياته بالموت المادي . والإنسان الذي يصارع ويتألم لأجل أهداف ويموت عن أشياء يحبها لتحقيق الهدف — يقول المسيح — يكون قادرًا على الحياة . فالحياة لأجل هدف ، أصعب بكثير من الموت في سبيل مبدأ . فربما نموت لأجل هدف لم يتحقق بعد ، لكن أن نحيا

---

(١) مت ٤ : ٤

(٢) مت ١٠ : ٣٩

لكى نحقق هذا الهدف ، فهذا تكلفته أصعب من الموت . إنه يحتاج إلى فكر وجهد ووقت ، إلى تفان وأمانة وصراع حتى آخر العمر ، بل يحتاج إلى أن يقامر الإنسان بكل حياته لأجل الهدف : « من أضاع حياته يجدها » . فهى مقامرة لكنها مقامرة محسوبة .

هذه هى ملامح الإنسان المؤمن الذى يريده المسيح ، **إنه ليس بالإنسان الخانع المستسلم القانط . بل ذلك الإنسان الذى يعيش الصراع مع الذات ومع اتخاذ القرار ... إنسان يتألم لأجل هدف ، لديه استعداد للموت وقدرة على الحياة لتحقيق ما يفكر فيه** . هذه الصورة المتكاملة التى يرسمها المسيح لنا ، هى صورة أى إنسان يريد أن يتبعه . والسؤال هو : أين هذه الصورة من التابعين اليوم ؟!

الفصل الثالث

ظاهرة العنف

لا شك أن ظاهرة العنف التى تجتاح العالم فى هذه الأيام ، وخاصة بلاد الشرق الأوسط ، ظاهرة تدعو إلى التأمل . فلقد أصبح الإنسان يقتل أخيه الإنسان بشكل لم يحدث من قبل ، فى أقدم العصور تخلفًا . فالقتل اليوم ليس لأجل قضية ولا يوجَّه ضد أعداء ، بل القتل يتم لشهوة القتل ، ويوجَّه ضد أناس لا علاقة لهم بقضايا ، كراكبى طائرة أو سفينة أو مشاة فى شارع أو مرتادين فى مقهى . وقد يوجَّه ضد إنسان ينتمى إلى فكر معين أو جنس معين أو وطن معين ، دون أن تكون له مواقف تستدعى القتل . فهو يقتَل لمجرد الانتماء ، وهو ما يسمى بالقتل على الهوية .

وموقف المسيحية من العنف أُخذ عليها لا لها . فلقد ظن الكثيرون أن الضعف الذى تبديه المسيحية فى تعاليمها ، لا يصلح فى مقاومة العنف الذى يكتوى العالم بناره اليوم ، وإن كان البعض يطلقون على هذا الضعف تساميًا — تأدبًا منهم — بقولهم إن سمو تعاليم المسيحية لا تصلح فى مجتمعات اليوم .

لكن المتأمل جيدًا فى كلمات المسيح التى فيها يتعرض لظاهرة العنف ، لا يجد فيها أى مسحة من الضعف ، بل يكتشف فيها قوة غير عادية لنزع بذور الانتقام من داخل الإنسان ، وعلاج العنف بصورة مثلى . ودعونا نقرأ ما قاله المسيح : « سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن . وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك ، فاترك له الرداء أيضًا . ومن سخرك ميلاً واحدًا فاذهب معه اثنين . من سألك فأعطه . ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده .

سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . أما أنا فأقول لكم أحبوا أعدائكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم . وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم »[1] .

وهنا لنا أربع ملاحظات :

الأولى : أن المسيح هنا يتحدث عن مجالات مختلفة للعدوان ، وليس عن حالات بعينها . فهو يتحدث أولاً عن الإعتداء على البدن بالقول « من لطمك على خدك الأيمن ... » وهذه النوعية من العدوان يقع تحتها كل اعتداء على البدن الإنسانى من جرح وضرب ... الخ . فليس المقصود هنا اللطم على الخد تحديدًا .

والمجال الثانى للاعتداء هو الاعتداء على الممتلكات : « ومن اراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا » . ويقع تحته كل عدوان على الممتلكات عقارًا كان أم منقولاً ، ثيابًا كان أم أموالاً ... الخ .

والثالث هو الاعتداء على النفس الإنسانية بالتسخير : « من سخرك ميلاً واحدًا فاذهب معه اثنين » . ويقع تحت هذا المجال كل من يُشغِّل إنسانًا ما بلا أجر ، مستغلاً سلطانه عليه ، مهما كانت طبيعة هذا السلطان .

فهذه الامثلة التى قدمها المسيح ليس المقصود منها حالات محددة ، لكن المقصود بها نماذج من العدوان ، يقع تحتها كل ما يشابهها .

الملاحظة الثانية : أن المسيح هنا لا يتحدث عن علاقة الإنسان بالدولة أو الحكومة ، لكنه يتحدث على مستوى العلاقة الفردية .

فكون الإنسان يتنازل عن حقه للدولة أو لشخصية معنوية مثل شركة أو

---

(1) مت ٥ : ٣٨ ــ ٤٤

قطاع ما ، فهذا لا معنى له ، لأنه لا يحقق الهدف من الوصية . بل إن تنازل الإنسان عمّا يمكن أن يحصل عليه بالقانون ، فهذا ضد الوصية وليس معها . وحتى فى العلاقة الفردية نجد أن القانون ضرورى لحماية أولئك البشر غير القادرين على حماية أنفسهم ، أو غير الناضجين بما فيه الكفاية . فنحن نضع للأطفال حدودًا وهم يلعبون على الشاطىء ، حتى نضمن سلامتهم ونحميهم من أنفسهم . ولكن عندما يكبرون وينضجون يكونون فى غير حاجة لمثل هذه الحدود والقوانين . والمسيح هنا يتحدث إلى أناس هم فى غير حاجة إلى قانون للحصول على حقوقهم ، لكنهم أكبر وأنضج من أى قانون .

لقد كان الانتقام الجماعى هو السائد فى القديم . فقد كان خطأ شخصيًا ينتمى إلى قبيلة ما ، يمكن أن يؤدى إلى إبادة القبيلة بأجمعها . ولذلك أتى الناموس لكى ينظِّم هذه الأمور ، ويضع التوازن والتناسب بين الجريمة والعقاب ؛ فقال : عين بعين وسن بسن ويد بيد ورجل برجل . والمسيح هنا يتجاوز هذا الفكر إلى مناقشة ظاهرة الانتقام والعنف فى المجتمع ، وكيف يستطيع الفرد أن يتجاوزها .

الملاحظة الثالثة : أن هذه الوصية لا تبرر حماقة الآخرين بل تدعونا إلى التأمل فى احتياجاتهم .

والمسيح هنا يقول إن التجاء شخص ما إلى العنف لتوفير إحتياجاته أو فرض آرائه ليس من الإنسانية فى شىء ، ولا يلجأ إنسان إلى العنف إلا تحت ضغوط اجتماعية ونفسية واقتصادية رهيبة . فبدلاً من أن تدين الضارب وتضربه أى تعاقبه ، وبهذا تنتهى المشكلة ظاهريًا ، سواء بردعه أو بمنعه عن الضرب غصبًا فمن الأصوب ، أن تعالج ظاهرة العنف ذاتها ، وذلك بأن تمتص الضربة الأولى . فالذى يلجأ للضرب أو الاغتصاب أو تسخير الآخرين ، يحتاج إلى عطف لأنه يتصرف بدون عقل كحيوان ، ويحتاج إلى من يمتص غضبه ثم يعالجه بعد ذلك . إن امتصاص الضربة الأولى ينزع بذور الانتقام من دواخلنا ،

ويدعونا للتفكير فى احتياجات من يلجأ إلى العنف ، سواء إحتياجه للثقافة أو للعمل أو للمال . ولذلك يقول المسيح : « من سألك فأعطه » . ولم يوضح ماذا سأل وما الذى تعطيه له . إن المسيح يقول « إعطه » ما ترى أنه فى حاجة إليه ، ربما إحتياجه لا إلى ثوب بل إلى إحساس بالأمان ... وربما إحتياجه لا إلى ضرب أو تسخير ، بل إلى حب وإنفتاح وعطاء ذات .

إن مقابلة العنف بالعنف لن يحل المشكلة ، بل يزيدها تعقيدًا . والمسيح يقول بدلاً من أن ترد بالضرب وتعفى نفسك من المسئولية ، فكّر فى إحتياجات من يلجأ للعنف ، إن الذى يريد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك ، أترك له الرداء أيضًا ، لأن دفاعك عن الثوب هو دفاع عن فكر خاطىء أو موقف خاطىء للمجتمع ولك تجاه هذا الشخص . وهذا الموقف الخاطىء هو الذى دفع هذا الإنسان لأن يعتدى عليك ويأخذ ثوبك . لذلك عليك أن تعطيه الثوب والرداء ليهدأ ، ويكون هذا اعترافًا منك بخطأ موقفك كشخص وشريك لخطأ مجتمع . ثم عليك أن تهدأ وتقيم حوارًا مع نفسك للإجابة على عدة أسئلة هامة جدًا : لماذا خاصمنى ؟! لماذا أراد ثوبى ؟ لماذا لجأ للعنف لتحقيق هذا ؟! ويقول أيضًا : « من سخرك ميلاً فاذهب معه اثنين » . الميل الأول اعترافًا بالخطأ الخاص والعام ، والثانى أنت تهبه له بكامل حريتك ، لتكون قادرًا على بناء حوار معه .

إن الهدف هنا هو أن نتخلى عن فكر الانتقام ، ونجتث جذوره من دواخلنا .

الملاحظة الرابعة : أن هدف الوصية هو إصلاح المعتدى.وليس إذلال المعتدى عليه .

وكما ذكرت من قبل ، إن الوصية وسيلة لهدف . وهدف هذه الوصية هو إصلاح المجتمع بتقليل العنف فيه إلى أقل قدر ممكن . فإذا تحولت الوصية إلى هدف فى ذاتها ، وترك كل معتدى عليه حقه دون أن يحاول إصلاح المعتدى ،

فقدت الوصية معناها وهدفها ، وكانت سببًا لروح الضعف والخنوع والمذلة لمن يطبقها ، بل تجعل فيه مرتعًا للعقد النفسية القاتلة لكل طموح وكرامة وشهامة وأيضًا صارت مصدرًا لمزيد من العنف فى المجتمع . فالأساس هنا هو هزيمة الشر بعدم مقاومته : « لا تقاوموا الشر » ، ثم الاتجاه بإيجابية نحو الآخر لعلاجه : « اذهب معه اثنين » ... « أحبوا أعدائكم » ... الخ .

ولكن أحيانًا يكون تنفيذ الوصية بحرفيتها لا يحقق الهدف منها . فمثلاً تحويل الخد الآخر وإعطاء الرداء ، قد لا ينزع جذور الغضب من داخلى ، وربما يجعل المعتدى يزداد عنفًا وعدوانًا . وهنا يجب أن نعود إلى المبادىء التى وضعها المسيح فى علاقة الإنسان بالوصية ، وأيهما الأهم ، وترسيخ مبدأ أن الإنسان أهم من الوصية ، كذلك كلمات المسيح : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل »[1] . وهذا يجعلنا نكتشف أن المسيح لم يرفض عين بعين وسن بسن ، لكنه قبلها وأعطاها بُعدًا أعظم وأسمى ، هو « من لطمك على خدك الأيمن تحول له الآخر أيضًا » وفى المسافة بين عين بعين وسن بسن ، إلى مَن لطمك على خدك الأيمن حول له الآخر أيضًا ، يجد الإنسان المؤمن مجالاً متسعًا جدًا فيه يستخدم كل الوسائل الممكنة لإصلاح الآخر ، وإصلاح ذاته بالصورة التى يراها مناسبة ، دون إحساس بالذنب لكسر وصية ، ودون تجمد عند حرفية وصية . **فهو ابن ، والابن قد تحرر ، والآب أعلن له الهدف . والهدف هو معالجة العنف فى المجتمع . ومجال هذه المعالجة يبدأ من عين بعين. وينتهى إلى من سخرك ميلاً فاذهب معه اثنين ، أو العكس . والمشكلة ليست فى كيف أطبق الوصية بحرفيتها ، ولكن فى كيف أحقق الهدف من الوصية ؟!**

والسؤال الملح الآن ، هو كيف يصل الإنسان إلى هذا المستوى من

---

١ ــ مت ٥ : ١٧

النضج ؟! والمسيح لم يترك هذا السؤال معلقًا بلا إجابة ، بل قدم إجابته بحسم وموضوعية ، فقال لكى يصل الإنسان إلى هذا المستوى الرفيع من الفكر والروحانية عليه :

أولاً : أن يثق الإنسان المؤمن بذاته وبسلطانه :

« سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك ... لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات ، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين[1] » .

إن عدم مقاومة الشر وامتصاص نوبة العنف ، لا يقدم عليها إلا إنسان واثق بذاته واثق بسلطانه ، فهو ابن لأب يشرق على الجميع مهما كان موقفهم منه ، ويمطر على الكل دون تمييز . والثقة بالذات والسلطان ترفع المؤمن فوق القانون الطبيعى . والسمو فوق القانون يأتى نتيجة الثقة والإحساس بالسلطان .

ثانياً : أن يترجم ما يؤمن به إلى تصرفات يومية عادية

فلكى نحقق الهدف من هذه الوصايا علينا أن نضيّق الفارق بين ما نفكّر فيه وما نمارسه . إن الفكر هو « لا تقاوموا الشر » ، والممارسة هى كيف نحقق هذا رغم الاحتكاك البدنى والعنف المادى والنفس . وما ذكره يسوع من إدارة الخد وترك الرداء مجرد أمثلة ، وعلينا نحن فى عصرنا الحديث ، الذى لا يوجد فيه رداء أو تسخير ، أن نترجم « لا تقاوموا الشر » الترجمة المناسبة ، فى مواجهة الشرور العصرية ، كالضغط النفسى وضغط الإعلام والحرمان من وظيفة أو ترقية ... الخ .

وليس الغرض فقط أن نرتفع نحن كبشر ونسمو بعدم مقاومة الشر ، بل أن نقضى على الشر بصورة إيجابية واضحة ، ويتم ذلك بعدم المقاومة . فالهدف

---

(١) مت ٥ : ٣٨ و ٣٩ و ٤٥

هو محاربة الشر والقضاء عليه بصورة يومية ومتكررة .

ثالثاً : أن يطهِّر الإنسان ذاته من فكر الانتقام :

إن الطريق العادى الذى يسلكه الإنسان عندما يُعتدى عليه هو الانتقام . فاللطم يقابله تلقائيًا لطمة مضادة .. وهكذا . لكن المسيح هنا يقول لا تسير فى الطريق العادى الذى يسير فيه كل البشر . فإن كنت تريد أن تطهر ذاتك من الانتقام خذ الطريق المضاد ؛ لا تقاوم ... حول الآخر ... إذهب معه اثنين ... اعط ولا ترد أحدًا .. إنه الطريق المضاد للانتقام الشخصى ... إنه تدريب روحى ونفسى لتغيير شخصياتنا والسمو بها . إن المسيح يدرب أتباعه هنا لتكون لهم نظرة جديدة للحياة ، والأشخاص لكى تتطور شخصياتهم ، ويقتلعوا جذور الانتقام من قلوبهم ، الذى هو فى الأصل اتجاه غريزى حيوانى .

رابعًا : أن يترجم الإنسان ما يقتنع به إلى مشاعر وأحاسيس

« أحبوا أعدائكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم . صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم »[1] . وهنا ينتقل المسيح بالإنسان من مستوى القناعات الفكرية إلى مستوى المشاعر والأحاسيس . فإذا كان قد وضع مبدأ فكريًا : « لا تقاوموا الشر » وهو مبدأ ذهنى ، يجب علينا أن نمارسه فى حياتنا اليومية ، إلا أنه ينتقل إلى ما هو أسمى وأرفع . فأنا لا أتعامل مع عدوى فكريًا فقط كالآلة حتى أحوِّله من شرير إلى خيِّر ، وحتى أرتقى أنا وأسمو ، ولكن يجب أن أمتلىء محبة فعلية من نحو الآخرين الذين يقاوموننى . فلا تكون علاقاتى مبنية على مجرد أفكار ، بل على مشاعر وأحاسيس . وهذا لا يتيسر إلا بالتدريب على كيفية مباركة من يلعننى ، وإحسانى إلى مبغضىّ ، وصلاتى لأجل من يسىء إلىّ .. إن التحول لا يجب أن يكون فى الفكر فقط ، بل

---

(١) مت ٥ : ٤٤

فى المشاعر والأحاسيس أيضًا .

خامسًا : أن يراجع الانسان المؤمن طموحاته

وأخيرًا يقول المسيح لذاك الذى يريده أن يحقق الهدف من الوصية راجع طموحاتك فهو يقول : « فكونوا أنتم كاملين » [١] . إن الهدف هو الكمال ، وهو نهاية الطريق . فهل تستمر فى الحركة أم لا . لا تنظر أين أنت ، بل إلى أين أنت ذاهب ؟!

هل لنا طموح للوصول للكمال ؟ إذًا لنتدرب على كيف نحب أعدائنا ، وكيف نحقق الهدف من وجودنا فى وسط المجتمع الذى نعيش فيه ، وكيف نصلح أنفسنا والآخرين دون اهتزاز لثقة بالنفس ، دون إحساس بالضعف . فنحن نقوم بهذا من موقع قوة وسلطان ، وفهم وإدراك ، ومشاعر وأحاسيس .

---

(١) مت ٥ : ٤٨

الفصل الرابع

حقوق الإنسان

قضية حقوق الإنسان من القضايا الخطيرة والملحة فى حياتنا المعاصرة . وأستطيع أن أقول إن هذه القضية لم تحسم بعد ، لا فى الدول المتقدمة ولا النامية . فأمريكا تموج بالتفرقة العنصرية ، والبيض مغروسين فى جنوب أفريقيا يحكمون الاغلبية السوداء وحتى بعد أن خرجت وثيقة حقوق الإنسان من الأمم المتحدة تنادى بحق الإنسان فى اختيار دينه وعمله وأسلوب حياته ... ما زال هناك بشر يرزحون تحت نير بشر آخرين ، بسبب لونهم أو دينهم أو جنسهم .

ولقد تعرَّض السيد المسيح لهذه القضية عندما قال : « قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل . ومن قتل يكون مستوجب الحكم . وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم . ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع . ومن قال ياأحمق يكون مستوجب نار جهنم . فإن قدَّمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئًا عليك ، فاترك قربانك قدَّام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك . وحينئذٍ تعال وقدِّم قربانك . كن مراضيًا لخصمك سريعًا ما دمت معه فى الطريق . لئلاً يسلِّمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتلقى فى السجن . الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفى الفلس الأخير »[١] . وكذلك فى قوله :

---

(١) مت ٥ : ٢١ — ٢٦

« فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم »[1] .

والمسيح هنا يتحدث عن القتل ويقول سمعتم أنه قيل إن من أبسط حقوق الإنسان أن يحميه المجتمع من القتل ، وأن لا يقتله أحد لأى سبب من الأسباب . وإذا قتل ، فإن قاتله يكون مستوجب الحكم . لكنه يضيف قائلاً أن القتل ليس هو العدوان الوحيد على حق الإنسان فى الحياة . فهناك أنواع وأشكال أخرى للعدوان : فالذى يغضب على إنسان آخر باطلاً ، والذى يحتقر أخيه الإنسان بسبب جنسه أو لونه ، والذى يسفّه أفكار الآخرين ومعتقداتهم ، إنما هو فى الحقيقة يمارس ، ما هو أفظع من القتل . ويقدّم المسيح ثلاث درجات للعدوان على حقوق الإنسان :

الأولى ـــ العدوان على إنسانية الإنسان :

وهذا ما يسميه المسيح هنا « بالغضب الباطل » . فكلمة باطل هنا لا تعنى الغضب من إنسان بدون وجه حق فقط ، لكنها تعنى أيضًا الغضب من شخص ما والتفكير فى الانتقام منه واحتقاره داخليًا ، دون إعلان هذا الغضب والانتقام له أو لغيره . والصورة هنا لإنسان يجلس غاضبًا يخطط لنفسه كيف ينتقم من أخيه الإنسان الذى غضب منه . إنه يضع خطة لإحراجه وجعله فى موقف لا يحسد عليه . إنه نوع من عدم قبول الآخر ووضع خطة لقتله ، سواء من الناحية الأدبية أو النفسية أو المادية .

ويدخل تحت هذا الفكر التخطيط لتجاهل إنسان معيّن فى المجاملة ؛ فى ظروف مرضه أو أفراحه ، أو عدم تحية إنسان أو مصافحته بسبب غضب داخلى . إنه وضع خطة داخل الإنسان فى كيفية معاملة الآخر بغضب

---

(١) مت ٧ : ١٢

وتأنيب . فالغضب الباطل يعنى الغضب الصامت الداخلى ، الذى يظهر فى تصرفات خارجية . ويقول المسيح إن هذه التصرفات ضد إنسان ما دون تدبير واضح عن سببها ، إعتداء على حق الإنسان فى إبتسامة أو مجاملة أو أى تعبير عن مشاعر الأخوة والمودة . فالذى يعتدى على حق الآخر بهذه الصورة ، فيعتدى على إنسانيته ، فيستحق المحاكمة والحكم عليه .

الثانية ـــ العدوان على كرامة الانسان :

يقول : « ومن قال لأخيه رقا » ، وكلمة رقا التى يستخدمها المسيح هنا لا يوجد لها مثيل فى أى لغة حية . فهى كلمة توحى بمعنى الاحتقار للشخص الآخر . فعندما تتحدث إلى إنسان ما باحتقار وغطرسة بسبب جنسه أو لونه أو دينه ، فأنت تعتدى على حق من أهم حقوقه .

فى حفل أقامه ملجأ للأيتام ، طلبت المشرفة من طفلة موهوبة فى الغناء والموسيقى ، أن تغنى وترقص أمام الضيوف لأنهم سيتبرعون للملجأ بمبالغ كبيرة . لكن الطفلة رفضت الاستجابة لرجاء المشرفة وأحرجتها أمام الضيوف . فما كان من المشرفة إلا أن اتجهت إليها صارخة فى وجهها بغضب واحتقار قائلة : أنت يتيمة ، وهؤلاء الناس هم الذين يطعمونك . وفى اليوم التالى وجدوا الطفلة منتحرة فى حجرتها . إن الجملة التى نطقت بها المشرفة تساوى كلمة « رقا » ، وتساوى أيضًا كلمة « نيجرو » والتى يطلقها البيض فى أمريكا على الزنوج ، إحتقارًا للونهم وجنسهم . وفى باكستان يطلقون على الأقلية كلمة « شولا » ، التى تعنى « زبّال » ، مهما كانت درجة الشخص المنتمى إلى الأقلية . إن العدوان على كرامة الإنسان بسبب لونه أو دينه أو جنسه ، إعتداء سافر على حق من أهم حقوقه ؛ حقه فى الحياة الكريمة .

الثالثة ـــ العدوان على كيان الانسان ووجوده :

« ومن قال ياأحمق يكون مستوجب نار جهنم » . وكلمة أحمق تعنى طفل

غير مميز أو مجنون مثلاً ؛ أى إنسان غير قادر على تحمل المسئولية وتمييز الأمور ؛ إنه إنسان لا فائدة من وجوده . وعندما تصف إنسان بالحمق ، فهذا تحطيم لكيانه النفسى والاجتماعى . وهذه الدرجة لا تعنى مجرد الاحتفاظ فقط ، بل الإلغاء الكامل لكيان الآخر . إنه نوع من العدوان الذى يسىء إلى الآخرين أمام العالم : فأنت تقول لإنسان ما أنه غبى ، أمام كل مجتمعه . إن وصف إنسان بالحماقة تشويه له ولسمعته ، ومحاولة جادة لتحطيمه .

ويقول المسيح إن اعتديت على إنسانية الانسان فهذا أمر سىء ، إن حقَّرته فهذا أسوأ ، أما إن حطمت كيانه معنويًا واجتماعيًا فهذا أسوأ بكثير جدًا . ولقد ساوى المسيح بين الدرجة الأولى من العدوان — وهى العدوان على إنسانية الإنسان والقتل ، فكم تكون الدرجتين الأخريين . وجدير أن نلاحظ — هنا — التدرج فى الحكم ، الذى يتناسب طرديًا مع التدرج فى العدوان : « من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم ، ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع ، ومن قال ياأحمق يكون مستوجب نار جهنم » . فإذا عاملت شخصًا بجفاء ، وظهر هذا فى تصرفاتك من نحوه ، فأنت تستوجب المحاكمة . وإن إعتديت على كرامته فأنت تستوجب محاكمة دينية وهى أصعب من المحاكمة المدنية . أما إذا اعتديت على كيانه ووجوده ، فأنت تستحق الهلاك الأبدى .

وقبل أن نسترسل فى شرح حقوق الإنسان ، علينا أن نشير إلى ما قصده المسيح بكلمة أخيك ... هل يقصد به الإنسان من نفس الدين أو الجنس أو الوطن ؟ فإذا كان هذا قصد المسيح ، لكان هو ذاته عنصرى التفكير .

فى حادثة يسجلها لنا الانجيل ، أن ناموسيًا (يهودى عنصرى) جاء الى المسيح وسأله : « ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له ما هو مكتوب فى الناموس . كيف تقرأ . فأجاب وقال تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك وقريبك مثل نفسك . فقال له

بالصواب أجبت . افعل هذا فتحيا . وأما هو فإذا أراد أن يبرر نفسه قال ليسوع ومن هو قريبي . فأجاب يسوع وقال . إنسان كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا فوقع عليه لصوص فعرّوه وجرّحوه ومضوا وتركوه بين حي وميت . فعرض أن كاهنًا نزل في تلك الطريق فرآه وجاز مقابله . وكذلك لاوى أيضًا إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله . ولكن سامريًا مسافرًا جاء إليه ولما رآه تحنن . فتقدّم وضمد جراحاته وصب عليها زيتًا وخمرًا وأركبه على دابته وأتى به إلى فندق واعتنى به . وفي الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق ، وقال له اعتن به ومهما أنفقت أكثر ، فعند رجوعي أوفيك . فأي هؤلاء الثلاثة ترى صار قريبًا للذي وقع بين اللصوص ؟ فقال الذي صنع معه الرحمة . فقال له يسوع اذهب أنت أيضًا واصنع هكذا »[1] .

والسامري هذا كان عدوًا للرجل اليهودي الذي وقع بين لصوص من بني نحلته ، لكن المسيح يقول هذا هو القريب . فالقريب في فكر المسيح هو الإنسان بمعناه العام ، دون نظر إلى دين أو جنس أو عرق .

والمسيح لم يقف عند حد تشخيص المشكلة أو المرض ، وهو العدوان على حقوق الإنسان لكنه قدّم مبادىء إذا روعيت في المجتمع وعلى المستوى الفردي ، سوف توفّر الجو الملائم لأن يمارس الإنسان حقوقه بحرية مطلقة :

المبدأ الأول ــ أن الطريق الى الله يمر بالإنسان الآخر :

بمعنى أن الله لا يقبل عبادة إنسان هضم حقًا من حقوق أخيه في الإنسانية . ويقول المسيح في هذا : « فإن قدّمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكّرت أن لأخيك شيئًا عليك ، فاترك هناك قربانك قدّام المذبح واذهب أولاً اصطلح

---

(١) لو ١٠ : ٢٥ ــ ٢٦

مع أخيك . وحينئذ تعال وقدّم قربانك »[1] .

وتقديم القربان إلى المذبح كان وسيلة العبادة والتقرب إلى الله عند اليهود ؛ فإذا اعتدى شخص على حق من حقوق إنسان آخر ، ثم أخذ قربانه — أى الذبيحة — ليقدمه إلى الله ، فإن الله لن يقبل منه صلاته وعبادته وقربانه ، إن لم يذهب أولاً ويرد ما سلبه ، ماديًا كان أم معنويًا . ولقد عبَّر المسيح عن هذا بوضوح : إن طريقنا لابد أن يمر عبر علاقتنا بعضنا ببعض ، واحترامنا لحقوق بعضنا البعض . فالعبادة التى تقدمها لله لا تقبل كعبادة فى حد ذاتها ، لكنها تقبل كتعبير كامل عن الإنسان ؛ إنها توضّح فكره وقلبه واتجاهه أمام الله . وعلى الإنسان أن يقدّم لله فكرًا وقلبًا واتجاهًا طاهرًا ونقيًا من نحو أخيه الإنسان ، لكى يقبله الله .

المبدأ الثانى — تخطى حاجز الذات لاحترام حقوق الآخرين :

يقول السيد المسيح : « إذهب أولاً اصطلح مع أخيك » . وهذه رسالة المسيح للحضارة والإنسانية والمجتمع . إنه يقول لكل من يتبعه أن يذهب ويبذل جهدًا ليقيم صلحًا مع الإنسان ، بغض النظر عن ماهية هذا الإنسان . والمشكلة هنا يحددها المسيح فى الفعل « اذهب » . وهنا نرى تخطى الذات لأجل الآخر . إن قرار الذهاب إلى الآخر هو قرار داخلى ذاتى يحدث تغييرات عجيبة وتطورات أعجب فى تكوين شخصية الإنسان صاحب القرار ، وفى نظرته للآخرين . إن الأمر « اذهب أولاً » ، يصدر ضد كل شلل يعوّق الذهاب ... شلل الكرامة الذاتية والكبرياء والغرور واحتقار الآخر ... إنه واحد من أعظم الأبعاد فى الحياة الإنسانية .

---

(١) مت ٥ : ٢٣

وعندما يحسم الأمر فى داخل الإنسان ، سيكون هذا من أكبر عوامل نضوج الحياة الإنسانية ، والحفاظ على حقوق الإنسان .

المبدأ الثالث ــ المساواة بين البشر ، والحرص على إنسانية الإنسان :

يقول المسيح « وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضًا بهم »[١] . فكل الناس متساوون . ولذلك ، كما أحب أن يعاملنى الناس كإنسان ، دون نظر إلى غنى أو فقر ، علم أو جهل ، دين أو عرق ، علىّ أنا أن أتعامل مع الناس على نفس النمط . إن الحياة فى وسط المجتمع بفكر أننا متساوون ، يجعل المجتمع يحيا فى سلام ونمو وفى فهم متبادل . وفى الدرجات التى قدَّمها المسيح لإهدار حقوق الإنسان من احتقار بسبب جنس أو دين ، إلى إتهام الآخر بالحمق وهدم كيانه ، قسَّم المسيح أيضًا الحكم إلى درجات ؛ فكلما هبطتُ درجة فى احترامى للآخر ولإنسانيته ، ارتفعتْ درجة دينونتى وعقابى .

قابل أستاذ جامعى أحد طلبته المختلفين عنه فى الدين وكان قبيح الخلقة ، فحياه الطالب ولكن الأستاذ لم يرد التحية ، وقال له : ما أقبحك ــ هل كل أبناء دينك على هذه الدمامة والقبح ؟ فرد عليه الطالب قائلاً : هذا ما لا أعلمه ، ولكن يمكنك أن تذهب وتقول لذاك الذى خلقنى كيف أن خليقته قبيحة بهذا القدر .

إن عقيدة الخلق ، وهى من أهم مصادر القيم الإنسانية والأخلاقية ، تعلن أن الله خلق الناس جميعًا متساوون . ولذلك يجب أن نتعامل معًا عل هذا الأساس . **إذا لم يكن لنا إله فليس لنا معنى ، وإذا لم يكن لنا معنى فليس لدينا قيمة ، وإن لم نملك القيمة فنحن لا شىء . فقيمة الإنسان تأتى من**

---

(١) مت ٧ : ١٢

الله مباشرة ، وإهانة الإنسان إهانة لله .

وإذا أختلت القيمة فى المجتمع ، فلا يجب أن تختل فى وسط جماعة الله (مجتمع الذين يؤمنون بالله أى الكنيسة) . ففى المجتمع يكتسب الإنسان قيمته من كم المال الذى يملكه ، أو الدرجة العلمية التى وصل إليها ، أو الأصل العائلى أو الجنس أو العرق . لكن قيمة الإنسان فى نظر المؤمنين بالله ، تأتى من كونه خليقة الله ومركز اهتمامه وعنايته . يقول المسيح علينا أن نحترم إنسانية الإنسان ونحرص عليها ، لا لشىء إلا لأنه إنسان .

المبدأ الرابع ـــ التحرك بوعى وإيجابية وسط المجتمع :

يقول المسيح : « وكما تريدون أن يفعل الناس بكم إفعلوا هكذا أنتم » . إن المؤمن الحقيقى لا ينتظر ما يفعله الناس ، ولكن هو يفعل بالناس للناس . فتصرفاته لا تكون مجرد ردود أفعال بل فعل إيجابى واع ومستمر . قال هليل المعلم اليهودى الشهير : « ما تكرهه لنفسك لا تفعله بالآخرين .. هذا هو كل الناموس والباقى شرح له » . وفى سفر طوبيت : « ما تكرهه أنت لا تفعله لإنسان ما » . ويقول كونفوشيوس : « ما لا تريده لنفسك لا تصنعه بالآخرين » . لكن المسيح انتقل بهذه العبارات من السلبية إلى الإيجابية ليفتح أمامنا أفاقًا لا حد لها للتعبير عن إحترامنا للإنسان فى أى موقع ، وعلى أى صورة كان . **فاحترامى لحقوق الإنسان لا تقف عند الامتناع عن إيذائه أو تجريحه أو إهانته . ولا تقف عند إعطائه حرية العبادة واحترام الاله الذى يعبده واحترام أسلوبه فى التعبير عن ذاته ، بل أيضًا تتخطى ذلك إلى تقديم المعونة له والحب والتحرك بوعى وحساسية فى وسط الطوائف المختلفة والأعراق المتباينة ... فهذا هو الحفاظ على حق الإنسان بإيجابية ووعى .**

المبدأ الخامس ـــ إحترام القانون وبناء السلام الاجتماعى

إن التحرك بوعى فى وسط المجتمع والحفاظ على علاقتى بالآخرين ، غير

كافيين لحفظ حقوق الإنسان ، فهذا يتم إلا باحترام القوانين الموضوعة التى تضبط العلاقات ، وتحل مشاكلى قبلَ الوصول إلى القضاء : « كن مراضيًا لخصمك سريعًا مادمت معه فى الطريق . لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ، ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتلقى فى السجن »[1] والصورة المقدمة لنا هنا ، لاثنين يتشاجران بمكان بخناق بعضهما البعض متجهان إلى مركز الشرطة أو ناظر المدرسة أو مدير الشركة . والمسيح ينصح بحل المشكلة مع الخصم وصنع السلام معه فى الطريق ، فتنتهى المشكلة قبل الوصول إلى المسئول . وهذا يتطلب هدوءًا مع الخصم ، فلا نستثار بكلمات ولا نندفع بغضب ، فنهين الآخرين .. والمسيح هنا يركّز على احترام الإنسان للجهات المسئولة عن تطبيق القانون على جميع درجاتها . فهذا يجعل الإنسان قادرًا على احترام حقوق أخيه الإنسان . **فالذى لا يهاب القضاء أو الشرطة ويستطيع شراءهما بالمال ، أو تخطيهما بسلطاته أو إمتيازاته أو علاقاته ، يهدم صرحًا من أهم صروح الحفاظ على حقوق الإنسان .**

المبدأ السادس ـــ العناية بسلامنا الشخصى ، وحقوقنا الإنسانية :

إن عدم احترامنا لحقوق الآخرين ، سوف ينزع منا الإحساس بالأمن والسلام . فتاريخ الديكتاتوريات المدنية والدينية ترينا كيف أن كل صاحب سلطان أو قريب من السلطة ، كان يدوس حقوق البشر باسم السلطان أو باسم الدين ، عاش فى رعب داخلى خوفًا من ثورة المظلومين والمقهورين . والتاريخ يعلّمنا أن انتقام المقهورين كان أقسى من كل التوقعات ولنا فى الثورة الفرنسية والثورة الروسية خير مثال لذلك .. لذلك فاحترامى لحقوق الإنسان هو فى الحقيقة احترام لذاتى كإنسان وحفاظًا على سلامتى وكيانى ... وعدم احترامى لحقوق الغير يساوى فقدانى للأمن والسلام والطمأنينة . يقول المسيح

---

(١) مت ٥ : ٢٥

« يسلمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتلقى فى السجن . الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفى الفلس الأخير » .

الفصل الخامس

الممارسة الديمقراطية

هناك تميمة أثرية قديمة تصور ثلاثة قرود ؛ واحد منهم يضع يديه على عينيه ، والآخر على أذنيه والثالث على فمه ، ومكتوب عليها : لا أرى لا أسمع لا أتكلم . وقد تصوَّر البعض خطأً أن المسيح قد تبنى هذه النظرية عندما تحدث قائلاً : « لا تدينوا لكى لا تدانوا ، لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يُكال لكم . ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك ، وأما الخشبة التى فى عينك لا تفطن لها . أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها الخشبة فى عينك . يامرائى أخرج أولاً الخشبة من عينيك وحينئذ تبصر جيدًا أن تخرج القذى من عين أخيك . لا تعطوا القدس للكلاب ، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير . لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم »[١] . وقد فسَّر البعض كلمات المسيح بأنه يرفض أن ينتقد الإنسان أخيه الإنسان ، أو أن يشارك المؤمن فى حزب سياسى أو أن يقيِّم سياسة بلده ، أو يقول رأيه فى الحاكم أو النظام ، سواء بصورة إيجابية أو سلبية فكل هذه دينونة للآخرين . والحقيقة أن تفسيرنا للكلمة ارتبط بواقعنا وبيئتنا ، التى تدفعنا دفعًا إلى السلبية .

وبادىء ذى بدء ، نقول إن المسيح لم ينادى بتعليم لم يطبقه هو فى حياته . وبالعودة إلى أحداث حياته فى المجتمع الذى عاش فيه ، ومدى تفاعله معه ، نجد أن المسيح لم يرَ خطأً فى مجتمعه وصمت عنه ، سواء كان مصدر هذا

---

(١) مت ٧ : ١ ــ ٦

الخطأ أعلى سلطة سياسية كالملك هيرودس مثلاً ، أو أعلى سلطة دينية كرجال الهيكل . وقد وقف المسيح مع يوحنا المعمدان ضد ديكتاتورية هيرودس ، ودفع يوحنا حياته ثمنًا لإبداء رأيه ، الذى كان رأى الله فى هيرودس . عندما أراد هيرودس قتل المسيح والتخلص منه ، قال المسيح للفريسيين الذين أخبروه بأن هيرودس يريد قتله : « امضوا وقولوا لهذا الثعلب ها أنا أخرج شياطين وأشفى اليوم وغدًا وفى اليوم الثالث أكمّل »[1] .

ولقد انتقد يسوع السلطات الدينبة والمتدينين ، ووجه إليهم إنتقادات حادة وعنيفة ، قائلاً عنهم « انهم يحزمون أحمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس وهم لا يريدون أن يحركوها بأصبعهم . وكل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس . فيعرّضون عصائبهم ويعظّمون أهداب ثيابهم »[2] . ويقول : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ولعلة تطيلون صلواتكم ... ويل لكم أيها القادة العميان ... أيها الجهال والعميان ... أيها الحيات أولاد الافاعى »[3] . كما دافع يسوع عن الفقراء والمظلومين والمسحوقين « طوباكم أيها الجياع الآن لانكم تُشبعون ، طوباكم أيها الباكون لأنكم ستضحكون ... ويل لكم أيها الأغنياء ... ويل لكم أيها الشباعى »[4] .

ولقد كان للمسيح رأيه فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ... إذن فالمسيحية لم تدعنا أبدًا لأن نغلق عيوننا وأذاننا ونلجم ألسنتنا ، عندما نرى حقوق الإنسان تهدر ، أو نرى أخطاء قاتلة فى توزيع الثروة أو الممارسة السياسية .

---

(١) لو ١٣ : ٣٢

(٢) مت ٢٣ ــ ٤ و ٥

(٣) مت ٢٣ : ١٤ ــ ٣٦

(٤) لو ٦ : ٢٠ ــ ٢٦

وينبغى أن نعلم بأن الممارسة الديمقراطية لا تتجلى فى ذكر السلبيات ، بل أيضًا تبرز الإيجابيات . فالديمقراطية هى أن يكون للشعب والمؤسسات المعبرة عنه ، دور فى الحكم والتقييم ، أو بالتعريف التقليدى حكم الشعب للشعب وبالشعب . والمسيح هنا يتحدث عن الديمقراطية وضوابطها ويضع ، أمامنا أربعة أفكار :

أولاً — أنه لا بد من وجود نظرية واضحة للتقييم والنقد :

يقول المسيح : « لا تدينوا لكى لا تدانوا . لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون . وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم »[1] . وهنا يرفض المسيح إلقاء الاتهامات والأحكام على عواهنها . ويرفض لأى مؤسسة — وأيًا كانت — أن يقيم مؤسسة أخرى ، دون أن يكون لها نظرية متكاملة لهذا التقييم . ويرفض أن يقيّم إنسانًا آخر ، دون أساس واضح للتقييم . فمن يريد أن ينتقد أو يدين لغرض شخصى مرفوض . لكن على كل من يتصدى للتقييم والنقد الموضوعى ، أن يضع مقياسًا أو مكيالاً يصلح له وللآخرين . وعندما تضع مؤسسة ما نظرية محددة وواضحة للتقييم ، لا بد وأن تتيقن بأن هذه النظرية سوف تطبق عليها تقييمها هى . فإذا إنتقدت الأحزاب المعارضة الحكومة لأنها لا تمارس الديمقراطية مثلاً ، فى الوقت الذى تمارس فيه تلك الأحزاب سياسة ديكتاتورية داخلها ، فإن نقدها يكون باطلاً . وإذا انتقدت الكنيسة أو أى هيئة دينية الحكومة لأجل حقوق الإنسان ، ولكن هذه الهيئة لا تراعى حقوق الإنسان فى نظامها الداخلى أو فى علاقاتها الخارجية مع المختلفين عنها ، يكون إنتقادها باطلاً .

فالمسيح يقول لا تحكموا على أحد بغير نظرية واضحة ومحددة للنقد ، لأنكم

---

(١) مت ٧ : ١ ، ٢

بالدينونة التى بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم . فإذا كانت النظرية التى ينتقد على أساسها نظرية غير منطقية وغير واضحة وغير مطبقة على من ينتقد ، فسيكون هو الخاسر فى النهاية .

وكما أن هنالك نظريات اقتصادية عامة تقيّم على أساسها عمل الشركات والمؤسسات الاقتصادية ، ونظريات للنقد فى الأعمال الأدبية والفنية يمكن أن يقاس عليها أى عمل من الأعمال دون تحيز أو ميل ، فهذا ــ أيضًا ــ يعلمنا المسيح إياه ، عندما نحاول أن ننتقد الآخرين ونقيّمهم ونحكم عليهم .

والتقويم شىء وإصدار الأحكام أو الدينونة شىء آخر . فالحكم معناه أنك قيمت الشخص أو المؤسسة بناء على نظرية متكاملة للنقد ، ثم حكمت عليه بعد ذلك ، سواء بالسلب أو الإيجاب . ولذلك فلكى ندرك مفهوم المسيح عن الديمقراطية علينا أن نفرّق بين الحكم والنقد . فليس كل نقد حكمًا ، بل هو محاوله للتقيم . والحكم أو الدينونة يجب أن يكون مبنيًا على نقد متزن .. والمسيح هنا لا يقول « لا تدين » ، ولكنه يقول لا تكن مغاليًا فى الدينونة والنقد إلى حد التجريح ، لأنه بالكيل الذى به تكيلون سيكال لك . فإن كنت جائرًا فى نقدك وحكمك فسيكون الآخرون جائرين فى نقدهم وحكمهم عليك . وكما أنك ، عندما تتعرض للنقد من الآخرين تريدهم أن يكونوا منصفين ومقدّرين لظروفك وإمكانياتك وقدراتك هكذا أنت أيضًا . فعندما تضع مقياسًا لنقد الآخرين ، عليك أن تضع نفسك على ذات المقياس : « لأنك فيما تدين غيرك تحكم على نفسك »[١] .

وهنالك أمثلة توضح لنا بعض الأساليب الخاطئة ، فى التقييم والحكم :

(ا) **الأحكام العامة** : فالحكم العام عادة يكون خاطئًا . فكوننا نقول

---

(١) رو ٢ : ١

إن بلدًا ما فاسد وآخر صالح ، أو نطلق على أتباع فكر ما أنهم منحرفون أو غير منحرفين ، أو إطلاق حكم عام على الحكومة ككل أو على حزب أو مؤسسة بكاملها ، أو حتى على حقبة تاريخية معينة ، مثل الحقبة الملكية أو الجمهورية أو الساداتية .. وهكذا ، فكل هذه الأحكام خاطئة . وعندما سمع واحد اسمه نثنائيل أن المسيح قد جاء من الناصرة ، قال : « أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح »[(١)] . وهذا حكم خاطىء ، لأنه حكم عام .

(ب) **الحكم حسب الظاهر** : يقدّم لنا الكتاب المقدس ما حدث لبولس عندما كسرت به السفينة ونجا مع ركابها إلى جزيرة يسكنها البرابرة ، فأوقدوا لهم نارًا — من أجل المطر والبرد — فخرجت من الحرارة أفعى ونشبت فى يد بولس . فلما رأى سكان الجزيرة هذا قال بعضهم لبعض ، لا بد أن هذا الإنسان قاتل لم يدعه العدل يحيا ولو نجا من البحر ، فنفض بولس الحية إلى النار ولم يتضرر بشيء ردىء . ولما انتظر سكان الجزيرة ولم يروه قد انتفخ أو مات ، ولم يعرض له شيء مضر ، قالوا هو إله »[(٢)] . وفى الحالتين أخطأوا فى الحكم لأنهم بنوا تقييمهم على مظاهر خارجية .

لقد ظن أهل استراليا الأقدمين أن جيمس كوك — أول مكتشف لهذه البلاد — إله ، لأنه يضع يديه فيى بطنه . وقد كان جيمس كوك يضع يديه فى جيب بنطلونه . وكانت هذه أول مرة يرى فيها شعب أستراليا البنطلون .

ويدعونا المسيح لأن نشارك فى المجتمع ، وأن نعمل على أن يكون المجتمع الذى نعيش فيه ديمقراطيًا . وعلينا أن نقيّم سياساته وتوجهاته ، ونشارك فى صنعها بطريقة صحيحة وواضحة ، ولا نحكم حسب الظاهر ، أو على وجه العموم .

---

(١) يو ١ : ٤٦

(٢) أع ٢٨ : ١ — ٦

ثانياً : العلاقة بين تقييم الآخر واكتشاف الذات :

والمسيح هنا يقول إن تقييمنا للآخرين يساعدنا على اكتشاف ذواتنا بسلبياتها وإيجابياتها : « ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك ، وأما الخشبة التى فى عينيك فلا تفطن لها . أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها الخشبة فى عينك »[١] . والملاحظ هنا أن المسيح لا يرفض أن تنظر القذى ، لكنه يرفض عدم فطنتنا للخشبة التى فى عيوننا ، ويحضنا على أنه عندما نكتشف أخطاء الآخرين علينا أن نعود بسرعة لأنفسنا ، ونكتشف أخطاءنا من خلالهم ، لأنه فى أحيان كثيرة نحن لا ندرك اخطائنا الا من خلال تصرفات الآخرين الذين يشاركوننا الوطن والظروف والبيئة المحيطة . ويتحدث المسيح عن فائدة عظمى لتقييم الآخرين : وهى عندما أرى خطأ ما فى الآخرين ، أفكرّ هل أقوم أنا بنفس الشىء ، وهو ما يدعوه المسيح بـ « الفطنة » ؛ « وأما الخشبة التى فى عينيك **فلا تفطن لها** » . فعندما تتهم مؤسسة ما هيئة أخرى باتهامات معينة ، عليها أن تسأل نفسها هل هى تقوم بنفس الشىء أم لا . وعندما تنتقد مؤسسة دينية مؤسسة أخرى ، أو كنيسة تنتقد الأخرى ، أو عندما ينتقد حزب الحكومة حزبًا آخر أو العكس ، على كل هؤلاء أن يجلسوا أولاً مع أنفسهم ليكتشفوا ، هل هم يرتكبون نفس الأخطاء أم لا . إن الذى يهاجم الآخرين دون أن يلاحظ نفسه ، سواء كان فردًا أم شخصية معنوية ، يكون مناقضًا لنفسه ، ويهرب من واقع يعيشه ، وذلك بالهجوم على الآخرين ، فيمرض الفرد نفسيًا ويدب الفساد فى الجماعات والمؤسسات ، ويستشرى النفاق والمحسوبية ، **وعندما يصطدم هؤلاء بحقيقة ذواتهم يكون الوقت قد تأخر كثيرًا فى المواجهة مع الذات واكتشافها وعلاجها ، فتكون الطاقة الكبرى والانهيار من الداخل ، فلكى يكون تقييمنا صحيحًا ، علينا أن نرى القذى فى عيون الآخرين ، فى الوقت الذى نفطن فيه للخشبة التى فى عيوننا .**

---

(١) مت ٧ : ٣ و ٤

قد تأخر كثيرًا فى المواجهة مع الذات واكتشافها وعلاجها ، فتكون الطاقة الكبرى والانهيار من الداخل ، فلكي يكون تقييمنا صحيحًا ، علينا أن نرى القذى فى عيون الآخرين ، فى الوقت الذى نفطن فيه للخشبة التى فى عيوننا .

ثالثًا : العلاقة بين التقييم وتطهير الذات :

وهنا يقدم المسيح لنا المبدأ الثالث بقوله « يامرائى (ياممثل) أخرج أولاً الخشبة من عينك . وحينئذ تبصر جيدًا أن تخرج القذى من عين أخيك » . وهنا نجد البعد الإيجابى للتقويم . فإخراج القذى من عين الآخر ، أى لفت نظره إلى خطئه لتعديل مساره ، أمر مصرح به بعد إخراج الخشبة من عينى . فلكى يكون التقييم والنقد مؤثرًا وإيجابيًا ، علينا أن نطهِّر ذواتنا أولاً ، ولأن النقد من طبيعة الإنسان ، فهو ممارسة يومية سواء فى صحافتنا أو فى وسائل الاعلام أو فى جلساتنا معًا ، أو حتى فى بيوتنا وكنائسنا وفى المؤسسات الدينية والسياسة ... لذلك علينا أن نقوم بعملية تطهير الذات بصفة دورية ومنتظمة ، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة أو المؤسسة . فإن كان التقييم والنقد له أهميته الخاصة ، فلا قيمة له إن خرج من إنسان أو مؤسسة عُرفوا بعدم محاولتهم تطهير ذواتهم أو نقد تصرفاتهم أو قبول نقد الآخرين ... **والمشكلة الكبرى نجدها فى جماعة المؤمنين والسياسيين حيث يكثر التعلم . ولأن التعلّم يصاحب بالنقد والتوبيخ من المعلم ، فعليه أن يطهر ذاته كل يوم ويكون قدوة ، حتى يكون قادرًا على تقييم الآخرين وتعليمهم .. لكن الواضح فى بلادنا أن الدين أصبح تجارة مربحة ، وكم من الجرائم ترتكب باسمه .**

رابعاً : العلاقة بين من يقوم بالتقييم وموضوع التقييم :

أو بين من يوجِّه النقد ومن يُوجَّه إليه هذا النقد . والمسيح يختم نظريته هنا بفكرة غاية فى الإبداع ، إذ يقول أن التقييم يجب أن يكون فى وجود ديمقراطى

متكامل ، وأن يكون بأسلوب مهذب ودقيق ، وأن يوجه إلى من يرحبون بهذا التقييم رغبة فى الإصلاح والتقديم . فليس من الإيجابية ولا من الديمقراطية فى شيء ، أن ننتقد أى إنسان ، وفى أى وقت كان . فلكى يكون التقويم إيجابيًا وقادرًا على التعبير ، يجب على الناقد إن كان شخصًا أو مؤسسة ، أن يختار — بعناية — الجهة التى يوجه إليها النقد . وفى هذا يقول السيد المسيح : « لا تعطوا القدس للكلاب ، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير ، لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم » . والمعنى هنا : إن كنا نريد لتقييمنا أن يصل للآخرين ويكون مؤثرًا ، فيجب أن نختار من يُوجَّه إليه النقد بعناية ودقة متناهيين . فلا تنتقد إنسانًا أو مؤسسة ترفض مبدأ النقد أصلاً ، أو من الذين يبررون دائمًا أخطاءهم .

ويجب أن يكون الجو المحيط صحيًا . فلا بد من حماية من يدلى برأيه وينتقد . ويحذرنا المسيح من الاختيار الخاطىء . فعندما تنتقد شخصًا ليس لديه الاستعداد لسماع النقد ، فسوف يهاجمك بعنف وقسوة . والمسيح هنا يشجِّع من يحاول الانتقاد والتقويم بقوله إن كلمات النقد المخلصة « قدس » و « درر » ، أى أشياء مقدسة وثمينة لأنها تظهر سلبيات الآخر وإيجابياته وليس هذا فقط بل وتحاول إصلاحه وتغيير توجهاته فى الحياة ، وتحاول أن تجعل منه إنسانًا سويًا سعيدًا ، فى علاقاته مع الله والمجتمع والذات ، أو تجعل المؤسسة أكثر قدرة على القيام بدورها . ولذلك لا يجب أن يلقى الناقد المخلص بكلماته الثمينة إلى كلاب أو خنازير ، لأن هذه النوعية لن تقدّر نصائحه وإنتقاداته ، وسوف تدوسها بأرجلها . وليس هذا فقط ، بل تلتفت إليه وتمزقه . وهنا يقول المسيح إن رد فعل هؤلاء الناس ، أنهم يتحوَّلون من الموضوع إلى الشخص ، وبدلاً من أن يستفيدوا من النقد لإصلاح مسارهم ، يبدأون فى تشويه وتمزيق من ينتقدهم ، بعد أن يكونوا قد داسوا النقد الموضوعى بأرجلهم ... ولقد عانى السيد المسيح شخصيًا من هذا الموقف . فعندما كان ينتقد تصرفات اليهود كانوا يهاجمونه شخصيًا بالقول إنه مجنون أو به شيطان .

ولذلك لا بد من جو صحى يحمى فيه القانون الموضوع والمؤسسات الحاكمة حرية الرأى والنقد البنّاء ، وحماية كل من يدلى برأيه تجاه المؤسسات الحاكمة أو مراكز القوى ، مع فرض عقوبات حاسمة لكل من يسىء للاشخاص ولقد بدأ المسيح نظريته فى الممارسة الديمقراطية بالقول « لا تدينوا » ، وأنهاها بدينونة كل من يرفض الديمقراطية والتقيم والنقد الموضوعى ، واصفًا إياهم بـ « كلاب » و « خنازير » . وهنا نجد التوازن الدقيق والبديع فى فكر المسيح ، الذى يريد أن يصل بنا إليه ، وهو أنه لا ينفى أو يلغى التقويم والدينونة أو الحكم ، لكن يجب أن يتم هذا بشروط ، وطبقًا لنظرية واضحة ومتكاملة ، وفى جو صحى .

الفصل السادس

الجنس

عندما نريد الحديث عن الجنس تتداعى إلى أذهاننا صور كثيرة نعيشها اليوم فى مجتمعنا والصورة الأولى هى الأزمة الاقتصادية المتردية والطاحنة ، التى جعلت سن الزواج يرتفع فى بلادنا ، وغلاء المعيشة الذى يجعل الزواج من الأمور الصعبة جدًا على الإنسان العادى . كما يتداعى إلى الذهن صورة العلاقات الجنسية غير السوية ، التى جاءت نتيجة للظروف الاقتصادية . ففى فيلم الحب على هضبة الهرم تزوج شاب وشابة ليس لديهما مكان لممارسة حياتهما الزوجية الطبيعية ، فذهبا إلى الهرم وهناك قبض عليهما البوليس بتهمة إرتكابهما لعمل فاضح فى مكان عام ... هذا غير انتشار المخدرات وأفلام الجنس ، التى جعلت من الجنس سلعة رائجة اليوم . كما أصبحنا نسمع عن اغتصاب النساء والأطفال . هذا فضلاً عن المشاكل الزوجية الحادة ، التى تسببها العلاقات الجنسية ، وعدم التوافق الجنسى بين الزوجين .

والحديث عن الجنس أمر غير مريح لكثيرين . فنحن نعيش مجتمعًا شرقيًا ، يعتبر الحديث عن الجنس من المحرمات . لكن المسيح يواجه المشكلة بصراحة ووضوح ، ويريدنا أن نواجهها معه . وفى حديث المسيح عن الجنس ، ربطه بثلاث قضايا رئيسية :

الواقع الاجتماعى ، والمرأة ، والزواج .

أولاً : الجنس وقضية الواقع الاجتماعى

والمسيح يريد أن يوضح هنا أن الجنس واقع اجتماعى لا يمكن تجاهله . ولذلك قال : « سمعتم أنه قيل لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر

إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه »[1] فالجنس قضية إنسانية وجدت بوجود الإنسان . فهو حاجة أساسية تلح على الجميع . ومنذ القدم كانت الشرائع تتحدث عن الجنس . والكتاب المقدس ملىء بقصص الأنبياء ورجال الله وعلاقاتهم المختلفة وزيجاتهم المتعددة ؛ إبراهيم مع سارة وهاجر ، ويعقوب مع ليئة وراحيل ، وقصة شمشون مع دليلة ، وداود مع بثشبع ، وأمنون مع ثامار ... الخ . والناموس يواجه هذه المشكلة بالقول « لا تزن » . وفى العصر الحديث نعرف الكثير عن دوق وندسور ، الذى تنازل عن عرش إنجلترا لأنه أحب مسز سيمبسون . وفى كل الحضارات ــ على طول الزمان يجد الجنس وقد أخذ مكانًا ، لا يمكن تجاهله . وحتى فى أكثر الأماكن تدينًا وتطرفًا ، نجد الجنس موجودًا وبقوة . والفرق بين الشرق والغرب ، أن الشرق يمارس الجنس تحت الأرض ، بينما الغرب يمارسه فى النور . والدراسات تعلن أن ممارسة الجنس فى الشرق لا تقل عن الغرب لكنها غير ظاهرة على السطح . والمشكلة ليست مشكلة الجنس ــ فى حد ذاته ــ بل مشكلة التقاليد والحريات كذلك . فليست المشكلة إذن مجرد مشكلة أخلاقية فقط ، بل هى أكثر من ذلك بكثير ، إنها مشكلة واقع اجتماعى . إذن نحن كبشر نعيش عالم الجنس ، ولذلك يجب أن نواجه هذه القضية بفهم ووعى وإيجابية . فالجنس من الحاجات الإنسانية التى يجب إشباعها بطريقة صحيحة ، ولذلك واجه المسيح هذه القضية لأنها واقع إجتماعى من المستحيل تجاهله .

ثانيًا : الجنس والمرأة

لقد ربط المسيح بين الجنس والمرأة بقوله : « كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها

---

(١) مت ٥ : ٢٧ و ٢٨

فقد زنى بها فى قلبه »[1] . والمسيح هنا يتحدث عن قضية هامة جدًا هى نظرة المجتمع ككل ــ والرجل على وجه الخصوص ــ إلى المرأة كمصدر للجنس . فالرجل ينظر ليشتهى ، وكأن المرأة سلعة معروضة . ولنلاحظ أن السيد المسيح لم يتحدث أبدًا عن ثياب المرأة أو حليها ، لأنه يرى أن المشكلة الحقيقية ليست فى المرأة ، مهما تزينت أو تحلت ، بل مدى تحضر المجتمع والرجل فى نظرته إلى المرأة . فهل ينظر إلى المرأة كإنسان يجب أن يحترم فكره ، أم ينظر إليها كوعاء للجنس ، أهم ما يميزه هو الجسد فقط . إن وسائل الإعلام من صحافة وسينما وتليفزيون ، ساهمت فى جعل الفكر المسيطر على مجتمعنا يتجه بشدة إلى اعتبار المرأة مجرد جسد بلا فكر . فإذا تعرت إمرأة ، فالعيب الوحيد أنها تثير الرجل ، وكأن الرجل حيوان ينظر بلا عقل وبلا فهم ويشتهى أى جسد أمامه . وبذلك أصبح جسد المرأة كله عورة لا يجب كشفها . والقضية هنا هل المرأة مجرد أداة لممارسة الجنس ؟! لقد رفض المسيح هذا الفكر تمامًا بقوله إن الله من البدء خلقهما ذكرًا وأنثى . وهنا نجد التساوى والتعاضد ، فليس على الرجل أن ينظر لأكثر من أنثى واحدة والعكس صحيح . إن المسيح لا يحمِّل المرأة بمفردها مشكلة الجنس ، بل يعزوها بالأكثر لرؤية الرجل وتفكيره تجاه المرأة ، ثم رؤية المرأة لذاتها .

فى ندوة عن الجنس طالب أغلب الشبان باحتشام الشابات ، حتى لا يثيروهم بثيابهن الخليعة . أما الشابات فقد اعتبرن الحديث عن هذا الأمر من الأشياء المعيبة ، التى يجب ألا تناقش علنًا . إن تركيز الأسر على ملابس بناتهم من نشأتهن ، أعطاهن الانطباع بأن جسدهن عيبًا وعورة ، مما جعل الفتيات يشببن ولديهن إحساس بالنقص . فالتركيز ليس على عقولهن بل على

---

(١) مت ٥ : ٢٨

أجسادهن ، فتحس الفتاة بأنها سلعة معروضة ، سواء مغطاة أو مكشوفة . والفتاة المغطاة تمامًا من هامة رأسها إلى أخمص قدميها لا تحس بكيانها ووجودها إلا فى ممارسة الجنس ، لأن نظرة المجتمع إليها كعورة يجعلها تحتقر ذاتها ، ولا تجد كبرياءها إلا عندما يشتريها إنسان ما ويطلبها . ولقد نظر المسيح إلى المرأة كقيمة وكفكر وليس كمجرد جسد . ولذلك كانت المرأة ضمن المقربين إلى المسيح ، حتى أن مريم جلست عند قدميه لتتعلم [1] . ومع أن مرثا اعترضت على هذا ، إلا أن المسيح وافق على مسلك مريم لاحترامه لفكر المرأة وقدرتها على التعلم ، كالرجل تمامًا . ولقد قبل المسيح أن يحوِّل النساء حركته وأن يسافرن معه . وكتابة لوقا لقصة مريم وتلمذتها ، وتحويل النساء للحركة[2] ، يعد ثورة فكرية . إذ كيف يقبل لوقا أن يكتب ــ وبكل بساطة ــ أن النساء صرفن عليه من أموالهن وسافرن معه ، وهو رجل يهودى ذو تقاليد تحتقر المرأة . وهنا لا بد أن ندرك أن فكر المسيح ورؤيته للمرأة ، كانا عاملان قويان فى تغيير فكر لوقا ونظرته تجاه المرأة . **لقد نظر السيد المسيح إلى المرأة بكل تقدير لأنه ركَّز على إنسانيتها وفكرها لا على جسدها وهو ما فشل فيه الكثيرون ، قبله وبعده . أما كتبة الإنجيل الذين عاصروا المسيح وعاشوا معه ، فكتاباتهم احترمت المرأة احترامًا كاملاً ، بعكس رجال الكنيسة الذين أتوا بعده ولم يعاصروه ، لأنهم تأثروا أكثر بالتقاليد الاجتماعية .**

لقد وضح احترام المسيح للمرأة ، بمناداته بالزواج من واحدة فقط ، ورفضه الطلاق إلا لعلة الزنى .

---

(١) لو ١٠ : ٣٨ ــ ٤٢

(٢) لو ٨ : ١ ــ ٣

ثالثاً : الجنس والزواج :

الزواج فى فكر المسيح ليس مجرد مكان لممارسة الجنس ، بل هو اتحاد جسدين وفكرين معًا . وإذا كان هذا فى فكر الرجل والمرأة عن الزواج ، فسوف تتغير ـــ تبعًا لذلك ـــ نظرة الرجل إلى المرأة ، وأيضًا نظرة المرأة إلى ذاتها وإلى الرجل . وهنا يصبح التوافق فكريًا ونفسيًا ، مما ينتج معه توافقًا جسديًا . وهكذا يصبح الزواج المكان النموذجى لممارسة الجنس بمعناه المقدس والمتحضر .

وإذا تزوج الرجل بهدف إشباع الجنس ، فإنه ما أن يشبع حتى يرفض الزواج أو يبحث عن المتعة فى مكان آخر . وكذلك يمكن أن يتم الطلاق لأتفه الأسباب ؛ مثل تغيير الزوجة للون شعرها أو ثيابها ، أو بسبب مذاق الطعام الذى تصنعه ... الخ وهنا يكون من السهل جدًا للرجل أن يطلق زوجته لأنه لا يرى فى الزواج إلا الجنس والطعام . أما المسيح فيقول ؛ باحترام كامل وفكر متحضر للزواج : «من طلّق إمرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى ، ومن يتزوج بمطلقة فإنه يزنى »[1] وهنا نرى الاهتمام الفائق بكيان الأسرة ، وإنسانية المرأة وفكر الرجل .

إن السؤال الذى يواجهنا اليوم : هل الزواج مجرد رخصة لممارسة الجنس ؟! إن المشاكل القاتلة التى تعيشها الأسر اليوم نتجت من أن الإنسان يتزوج لهدف الجنس فقط ليس إلا . فإذا ما تزوج وتحقق الهدف ، ظهرت باقى المشاكل التى كانت مختفية تحت السطح ؛ مثل اختلاف الطباع والمشاكل المالية والاقتصادية ... الخ .

---

(١) مت ٥ : ٣٢

يحكى لنا الكتاب المقدس عن شخص إسمه امنون [1] أحب فتاة تدعى ثامار كانت أختًا غير شقيقة له ، وقد أحبها بجنون . وقد احتال حتى استطاع أن يستدرجها إلى بيته ، حيث مارس الجنس معها . وبعد أن انتهى ، كرهها جدًا لدرجة أن كراهيته لها فاقت محبته الأولى . إن هذه القصة تعبّر عن الحب غير الناضج ، والاندفاع فى الشهوة بسبب الكبت الاجتماعى ، ثم الانفجار فى أقرب فرصة ثم يلى ذلك الندم القاتل .

وهذا يعطى صورة صادقة للتقاليد الاجتماعية فى بلادنا عن الزواج . فالشاب والشابة لا يعرفان شيئًا عن الجنس ، لا من خلال كتب أو وسائل إعلام ، وكل المعلومات لديهم مشوهة . وما الزواج إلا منفذ للانفجار الجنسى ، بعده تهدأ الامور وتظهر المشاكل الحقيقية فى حياتهم ، ويطالبون بالطلاق .

إن المسيح يطالبنا بنظرة صحيحة للزواج .. نظرة مقدسة ، خالية من الكبت الجنسى . والاندفاع الشهوانى . فالزواج أرفع من هذا بكثير . إنه تفاعل شخصين معًا ليصبحا واحدًا .. اثنان مختلفان يعيشان معًا فى تفاعل إيجابى ومحبة بروح واحد هو روح الله ، الذى يجمعها بفكر واحد . هو بناء الأسرة والمجتمع بناءً خلاقًا بجسد واحد فى لقائهما الجنسى ، ليحققا الاتحاد المقدس معًا ، مما يضمن بقاء ونمو هذه الأسرة المتوافقة .

إن المسيح يدعونا لكى نواجه أنفسنا ونواجه مشاكلنا بوعى حقيقى وبفهم روحى لكى نتجه نحو الكمال .

ـ الطريق الصحيح لنظرة سوية وصحيحة للجنس :

إن كان المسيح يطالبنا بأن نسمو بذواتنا ، ونرتفع بأذهاننا وعواطفنا

---

(١) ٢ صم ١٣ : ١ ــ ٢٢

وأجسادنا ، فالسؤال هو كيف نستطيع أن نصل إلى فكر يسوع الروحى والحضارى عن الجنس ؟!

يقدّم لنا المسيح فى كلماته تدريبًا عمليًا . فهو ليس مجرد فيلسوف يتحدث عن نظريات صمّاء ثم يصمت ، لكنه معلّم متميّز . فبعد أن يقدّم التعليم ، يوضّح كيف يمكن أن نمارس ذلك التعليم . وهو يقدّم التدريب فى أربع خطوات :

١ ــ يبدأ التدريب من داخل النفس الإنسانية [إبدأ من الداخل] :

يقول المسيح : « كل من ينظر لأمرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه »(١) . والتركيز هنا على مصدر ونبع الشهوة . فمن داخل قلب الإنسان تخرج الأفكار الشريرة ، مثل الزنى والفسق والدعارة والنجاسة ... الخ . ومن الخطورة بمكان أن نعالج مظاهر المشكلة ، دون التغلغل إلى أسبابها الحقيقية . فعلاج السلوك الخاطىء بعلاج المظاهر السلوكية أسلوب خاطىء . فمن يكتفى بمطالبة المرأة بأن تتوارى وتحتشم ، ومطالبة الشاب ألا ينظر إلى إمرأة ، وأن يحتشم فى نظراته وكلماته فإنه يرتكب خطأً فى المنهج ، لأنه يركّز على الأعراض ، وليس على المرض ذاته . ولذلك يقول المسيح إن العلاج يبدأ من الداخل ، من فكر الإنسان وقلبه . ويتغير الفكر بتدريب العقل على رؤية جديدة للجنس والمرأة فعندما يمتلك الله القلب ويحل فيه يستطيع أن يحوّل أهدافه وتوجهاته ، ويجعل الفكر أكثر قداسة . وهكذا نرى أن التدريب على الحياة المتسامية فى الجنس يبدأ من الداخل . فلا تحاول أن تحل المشاكل العاطفية بعواطف روحية كالبكاء والصوم والصلاة فقط ، ولا المشاكل السلوكية بالانضباط وحده . لكن حل مشكلتك العاطفية أو السلوكية أو الفكرية يتم بتغيير الفكر .. بعلاج الفكر

---

(١) مت ٥ : ٢٨

والقلب أولاً . ويقول المسيح أنه لكى تحل مشكلة الجنس عندك ، لا تركّز على المظهر الخارجى بل إبدأ من الداخل بتغيير القلب والفكر ... بقبول فكر الله عن الجنس بنظرة كلها احترام لإنسانية المرأة وكيانها وفكرها ، ولتبدأ المرأة بتغيير الداخل ، فنظرة كلها احترام إلى نفسها وإلى الرجل .

٢ ـــ التدريب يستلزم ضرورة إتخاذ قرارات صعبة [اتخذ قرارات صعبة] :

يقول المسيح « فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقطعها وإلقها عنك »(١) ولا شك أن التدريب للوصول إلى النضوج أمر مؤلم على الإنسان ؛ فهو يدعوه للتنازل عن أشياء هامة كثيرة فى حياته ، وعن رغبات جامحة فى داخله .

عندما نرتبط بعلاقة مع الله ، فنحن لا نحيا لأجل ذواتنا فقط ، بل لأجل الله أيضًا . لقد سقطت حواس الإنسان وانحرفت بالخطيئة ، فأصبح إتجاهها الغريزى نحو الخطية ، ولكى نعدّل هذا الاتجاه يجب أن نتألم ، حتى ننتقل إلى حياة الطهر والنقاء .

عندما نعالج الأمر بتغيير الفكر ونقتنع بالاتجاه الجديد ، علينا أن نحقق هذا فى حياتنا . وتحقيق هذا لا يأتى بإغماض العين أو قطع اليدين حرفيًا ، لكن بالتدريب القاسى على كيفية الاستخدام الصحيح للعين ،واليد بالايمان بالمسيح المخلّص ، بعد الولادة الجديدة من الله . لقد تدرب يوسف وهو فى بيت فوطيفار بالألم . لقد درب عينيه ويديه جيدًا . كان يوسف متألمًا وهو يصارع قائلاً « كيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطىء إلى الله »(٢) . إنه ألم البطل الذى جرى السباق كله وفاز بالجائزة ... إنه ألم الرياضى عندما يمتنع عن طعام يحبه وينام فى أوقات معينة ، ليكون لائقًا بدنيًا ، مؤهلاً للنصر . يحكى لنا

---

(١) مت ٥ : ٢٩

(٢) تك ٣٩ : ٩

الكتاب عن النبى داود عندما كان يتمشّى على السطح ، ورأى امرأة تستحم[١] ، فسقط فى الخطيئة معها . لقد كان داود فى حاجة لأن يدرِّب عينيه جيدًا وهو يتمشّى على السطح .

إن التدريب فى هذا الأمر يأتى تدريجيًا ، فهو وإن كان قاسيًا ــ إلا أنه لا يأتى دفعة واحدة ، وإلا لما كان تدريبًا . فلا يتوقع إنسان أن يصل إلى النقاء الذى يصبو إليه بين يوم وليلة فالوصول إلى الهدف يحتاج إلى طريق طويل من التدريب المتدرج . والتدرج يأتى ، بأنى ــ أولاً ــ أذكّر نفسى دائمًا بأهدافى ، وهذا شىء هام جدًا . ثم أرتب أولويات حياتى ، ثم أمارس حياتى حسب ما أتصورها كنموذج لحياة ابن لله ، واضعًا لله هدفًا لحياتى . ولكى أصل إلى هذا الهدف العظيم علىّ أن أضع أهدافًا أقل . مثل القداسة والنقاء . ثم أضع أهدافًا محددة فى ذهنى كعلاقة متميّزة مع الله أو خدمة متميزة مع الناس . فمن الصعب أن أتدرب على القداسة ولى هدف غير الله فى حياتى . ومن الصعب أن أتدرب على القداسة ، وأنا لا أعرف كيف أرتب أولويات حياتى . ومن الصعب أن أحاول تحقيق هدف كبير ، قبل أن أحقق أهدافًا أصغر فمن الصعب أن أضع نفسى فى موقف يوسف مع زوجة فوطيفار ، قبل أن أتدرب كيف أنظر لامرأة فوطيفار فى وسط المجتمع ، وكيف أتحدث معها وأحترم كيانها كامرأة ، وكيف ... وكيف . لذلك علينا أن نتدرب كيف ننظر إلى بعضنا البعض ونتحدث معًا ونحترم بعضنا البعض .

٣ ــ نجاح التدريب يتوقف على الالتزام الحياتى [التزم]

يقول المسيح « من طلق إمرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى »[٢] . إن الذى

---

(١) ٢ صم ١١ : ٢

(٢) مت ٥ : ٣٢

يريد أن يتدرب ، عليه أن يلتزم ، ليس فقط للحظة أو للحظات بل كل الحياة . فالتدريب قبل الزواج هو أساس لتغيير الفكر . وهنا يصبح الزواج مصدر التزام لتطبيق التدريب والسمو به . إن المسيح عندما تحدث عن النقاء والطهارة ، لم يردف قائلاً : ولكن هذا الأمر صعب ، فعلى الإنسان أن يحاول قدر استطاعته ، لكنه قال : إن كنت تريد حياة الطهارة فعش حياة الالتزام مع إمرأة واحدة ، فهذا دليل جديتك وصدقك فى طلب النقاء والحياة مع الله . فالهدف من الزواج ليس الجنس فى حد ذاته ، بل هو إتحاد روحين وجسدين وفكرين كما ذكرنا . لذلك من يطلق إمرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى . فإن طلقها لأجل مشكلة فى الطباع أو مشكلة صحية أو مادية ، فهى لا تُطلَّق روحيًا . ولذلك فإن تزوجت تزنى ، ومن يتزوج بمطلقة بغير علة الزنى يزنى . وهكذا يربط المسيح الزواج بميدان التدريب على النقاء والطهر . إن الكثيرين يعتبرون أن الزواج مكانًا للإباحية الجنسية ، دون احترام لاجسادنا . والسيد المسيح يعلن أن الزواج هو الذى يعلن ويؤكد مدى إلتزامنا بالتدريب ومدى تغير فكرنا . هذا الفكر يقلل كثيرًا من مشاكلنا الزوجية ، إذ هو يعتبر الزواج مجال لتدريبنا الروحى والجسدى والسمو بنا .

٤ ــ تذكَّر أن التدريب وسيلة وليس هدفًا فى ذاته [تذكَّر الهدف]

عندما نتحدث عن التدريب أو نقوم به علينا أن نذكر أنه ليس هدفًا فى حد ذاته ، بل هو وسيلة لهدف أعظم ، هو تحقيق ملك الله على نفوسنا ، والتدريب على كيفية الحياة مع الله ، والتى سوف نعيشها معه إلى الابد . وليس من المنطقى أن يعيش أناس نجسون مع الله . ولذلك يقول المسيح : « إن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك . لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم . وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وإلقها عنك . لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى

جهنم »[١] . فالهدف من الطهارة لا يقف عند حد الأخلاق الحميدة ، ولا هو الخوف من المجتمع ، لكن لأننا أولاد الله وسنكون معه فى ملكه ، فيجب أن نحيا حياة الملكوت . ولكى نحيا حياة الله علينا أن نتأهل لها هنا بالتدّريب المستمر . فإذا خطب أمير أو ملك فتاة من عامة الشعب ، عليها أن تأخذ فترة تتأهَّل فيها ، قبل أن تصبح أميرة أو ملكة . فعليها أن تتدرب كيف تسير وتتكلم وتأكل كأميرة . ونحن سنعيش مع الله إلى الأبد . ولكى ندخل إلى دياره ونحيا فى ملكوته ، علينا أن نتأهَّل . والتأهيل هو التدريب المؤلم والملزم لنا ، فى حياتنا على الارض . لذلك علينا أن ننظر إلى التدريب لا كهدف فى ذاته ، بل كوسيلة تؤدى بنا إلى الهدف .

بهذا يضع المسيح الوسيلة العملية لتحقيق المبادىء السامية التى ننظر إليها قائلين أمن السهل تحقيق هذا ؟! أليس من المستحيل على الإنسان أن يرتقى إلى هذا الفكر ؟ ألا ترون معى أن كلمات المسيح غير عملية ؟!

إن السيد المسيح ، وهو يحدد لنا أهدافًا سامية ، لم يضعها عالية سامية ويتركنا فى إنحطاطنا نقيِّمها بقيمنا وبفكرنا ، لكنه أرانا طريق الصعود إليها واسلوب التدريب الهادىء والمستمر ، الذى من خلاله نستطيع أن نصل إليها ، إن وضعناها فى ضميرنا وعزمنا أن نحققها بإرادتنا .

---

(١) مت ٥ : ٢٩ و ٣٠

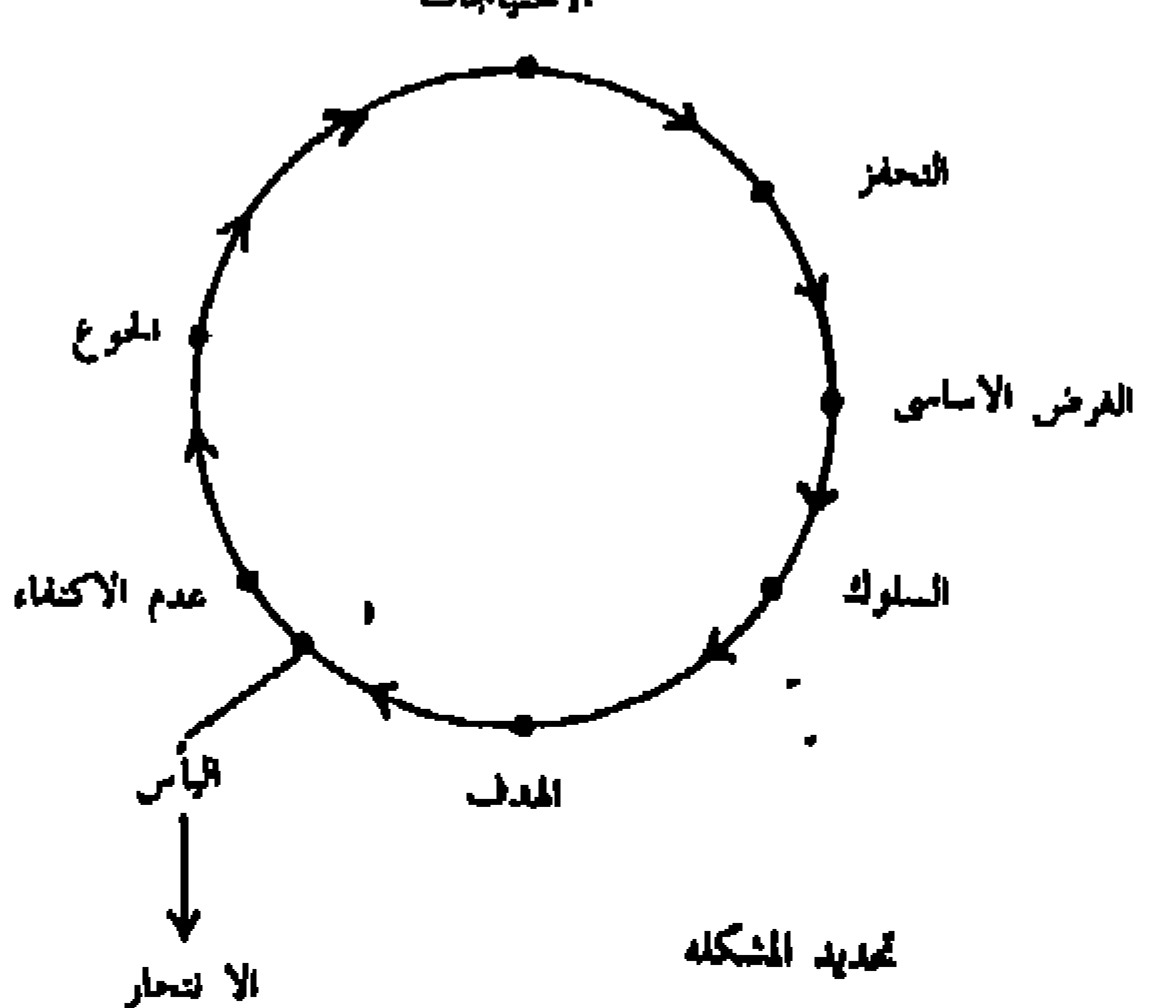
الفصل السابع

المسيح والقلق

من الكلمات التى أصبحت مألوفة في عصرنا الذي نعيشه ، كلمات « التوتر » ، « القلق » ، « الشد العصبى » ، « الصراع النفسى » ، « الخوف » .... الخ . وكثيرًا ما نجد شخصًا يشكو من صداع أو آلام فى المعدة أو اضطرابات فى الأمعاء دون أن يعانى من مرض عضوى ، ويقول : أنا أعلم إنى متوتر ومشدود عصبيًا .. ترى ما الذى يمكن أن نقوله لمثل هذا الشخص ؟! يمكن أن نقول له ، إن هذه مشكلة نفسية ، وننصحه بالذهاب إلى طبيب نفسى ، ويمكن أن ننصحه بممارسة هواية من الهوايات ، أو بالاسترخاء والتأمل ... الخ .

لكن هذا الكلام لا قيمة له ، إن لم نعرف أصل وأساس المشكلة وكيف نشأت من الأصل ؟! فلا بد من التشخيص . والتشخيص ببساطة — يتوقف على معرفة أسباب المشكلة ، وأسباب استمرارها .

تحديد المشكلة : شكل (١)



شكل رقم (١)　الاحتمال الثالى

عدم وجود عقبة فى طريق الوصول إلى الهدف

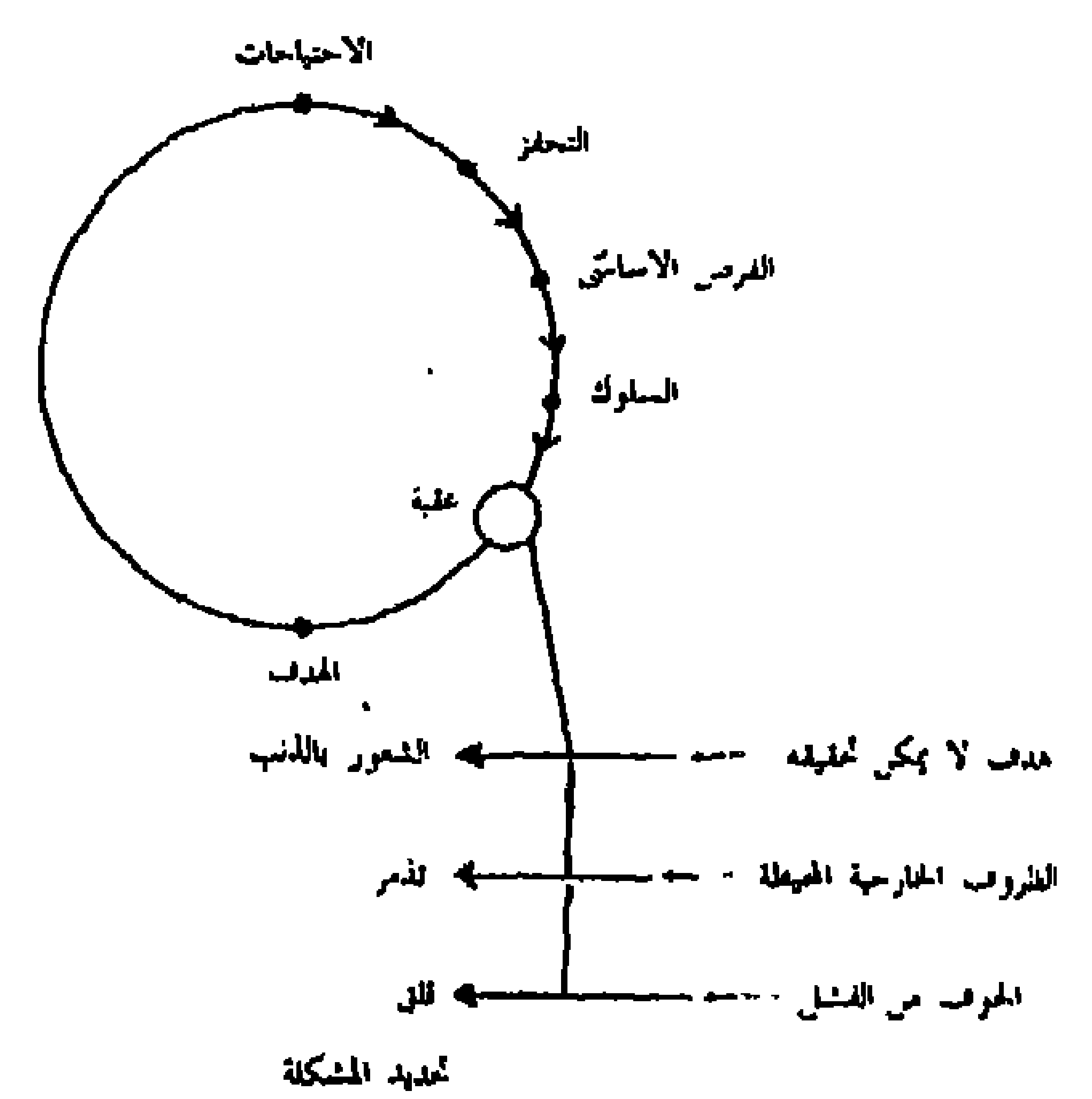
تبدأ المشكلة بإفتراض أهداف للإنسان ، يحس أنه بتحقيقها سوف يسد حاجاته الشخصية الملحّة . فكل إنسان له احتياجات لا يستريح إلا باشباعها . وقد اتفق علماء النفس والاجتماع على أن إحتياجات الإنسان الطبيعي ثلاثة : الطعام والجنس والحاجة إلى الاحترام

فعندما يشعر الإنسان بالاحتياج إلى واحدة من هذه الاحتياجات يتجه إلى إشباعها ممتلئًا بالتحفز والشوق . وهنا نجد دور « الفرض الأساسى » فى حياة الإنسان والفرض الأساسى هو الأسلوب الذى يفكّر الإنسان أنه من خلاله يحقق إحتياجه ، دون أن يحلّل إن كان هذا الأسلوب خطأً أم صوابًا . بمعنى أن هناك إنسان يتجه تلقائيًا إلى زيادة ساعات العمل ليشبع احتياجه للطعام ، وآخر يتجه تلقائيًا إلى السرقة أو الرشوة . وإنسان يفكّر أن يتزوج ليشبع إحتياجه الجنسى والآخر يفكّر أن يزنى . وهذه الفروض الأساسية تتكون فى ذهن الإنسان منذ طفولته . ولذلك هو يحتاج إلى مناقشتها ، فبمجرد أن يشعر بالحاجة يتجه إلى إشباعها من خلال الفرض الأساسى المتكّون داخله ، دون مناقشة لمدى صحة هذا الفرض من عدمه . ثم يسلك بعد ذلك فى إتجاه الهدف .

وهنا نجد أنفسنا أمام احتمالين : الأول هو وجود عقبة فى طريق الوصول إلى الهدف ، والثانى عدم وجود عقبة . ولنبدأ بالاحتمال الثانى : لنفرض أن إنسانًا أحس بالحاجة إلى الطعام أو الجنس ، فوضعهما هدفًا لحياته ، ولم يجد أى عقبة فى طريق تحقيق هدفه . ما الذى يحدث لمثل هذا الشخص ؟! إن هذا الشخص كلما أحس بتحقيق هدفه شعر بعدم الاكتفاء ، لأنه يحتاج إلى إشباع أكثر ، فيحس بالجوع ، والجوع يؤدّى إلى الاحتياج ، والاحتياج إلى التحفز ، فالفرض الأساسى ، فالسلوك ، فتحقيق الهدف ، فعدم الاكتفاء ، فالجوع ...

وهكذا . « لأن من يشرب من هذا الماء يعطش أيضًا »[1] ذلك لأن الإنسان وضع لنفسه أهدافًا مادية جسدانية تجعله يدور فى حلقة مفرغة ، لأنه يجرى خلف السراب ، فينتهى إلى الانتحار ، وفى أحسن الحالات إلى نوع من اليأس فى الحياة .

أما الاحتمال الأول ؛ فهو بروز عقبة أو حائل يحول دون الوصول إلى الهدف . وهنالك ثلاث أنواع من العقبات : شكل (٢)



تحديد المشكلة

شكل رقم ٢ الاحتمال الأول

وجود عقبة فى طريق الوصول إلى الهدف

(١) يو ٤ : ١٣

١ ـــ **عقبة توجد فى نوعية الهدف** ، بوضع أهداف مستحيلة التحقيق . وفى حالة عدم تحقيقها يقع الإنسان فريسة للشعور بالذنب . فمثلاً ـــ إذا وضع الإنسان هدفًا مستحيلاً ، مثل كسب احترام ورضاء كل الناس ـــ وهذا الهدف من المستحيل تحقيقه ـــ فكلما حاول أحس بخيبة الأمل . وحينئذ يسقط فى عقدة الشعور بالذنب ، لأنه يعتقد أنه لم يبذل جهدًا كافيًا لكسب رضا الناس واحترامهم .

٢ ـــ **العقبة توجد فى الظروف المحيطة** ، وهنا يضع الشخص أهدافًا ليست مستحيلة التحقيق ولكن ما أن يتجه نحو الهدف ، حتى تواجهها ظروف ـــ قد تكون متعلقة به ـــ تمنعه من الوصول إلى الهدف . وهنا يكون الفعل ، هو التذمر الهجومى أو العدائى تجاه العقبة ؛ مثل الولادة فى طبقة اجتماعية فقيرة ، منعته ـــ رغم إمكانياته ـــ من الزواج بمن يحب ، لأنها من طبقة أخرى .

وبنى إسرائيل يقدمون مثالاً حيًا لهذه المشكلة . فعندما كانوا يمرون بظروف صعبة وهم فى الصحراء ، كانوا يوجِّهون اللوم إلى موسى ، ويبدأون فى سرد الأحداث غير الطيبة التى مروا بها فى صورة تذمر أو شكوى فيبدون وكأنهم على استعداد لرجم موسى ، كما لو كان هو السبب فى هذه المشاكل . ولو أن شخصًا ما أحبط ـــ فعلاً ـــ مجهوداتى ، فى محاولتى لتحقيق الهدف ، ووقف بشكل ما فى طريقى ، سأشعر بالغضب تجاهه .

ويمكن أن نفهم الأمر بصورة أدق كما يلى : لو شعر شخص أنه يمكنه الوصول إلى هدفه لولا وجود عقبة ما فى طريقه ، هو غير مسئول عنها ، سيكون رد الفعل هو التذمر الهجومى أو العدائى تجاه هذه العقبة .لكن لو كانت هذه العقبة التى تسببت فى الإحباط ، شيئًا غير الظروف الخارجية ، مثل استحالة تحقيق الهدف ، سيكون رد الفعل هو الشعور بالذنب .

٣ ـــ **عقبة توجد فى الإنسان** : النوع الثالث من العقبات ، هو عقبة

« الخوف من الفشل » . وفى هذه الحالة يكون الطريق نحو الهدف ممهدًا ، والهدف نفسه معقول يمكن تحقيقه ، لكن بسبب الخوف من الفشل ، لن يحقق هذا الإنسان الهدف ، وسوف يتخلى عنه فى تردد وحيرة ... وعدم محاولته تحقيق الهدف يرجع إلى خوفه من أن يفشل ، وأن يوصف بعد ذلك بـ « الفاشل » .

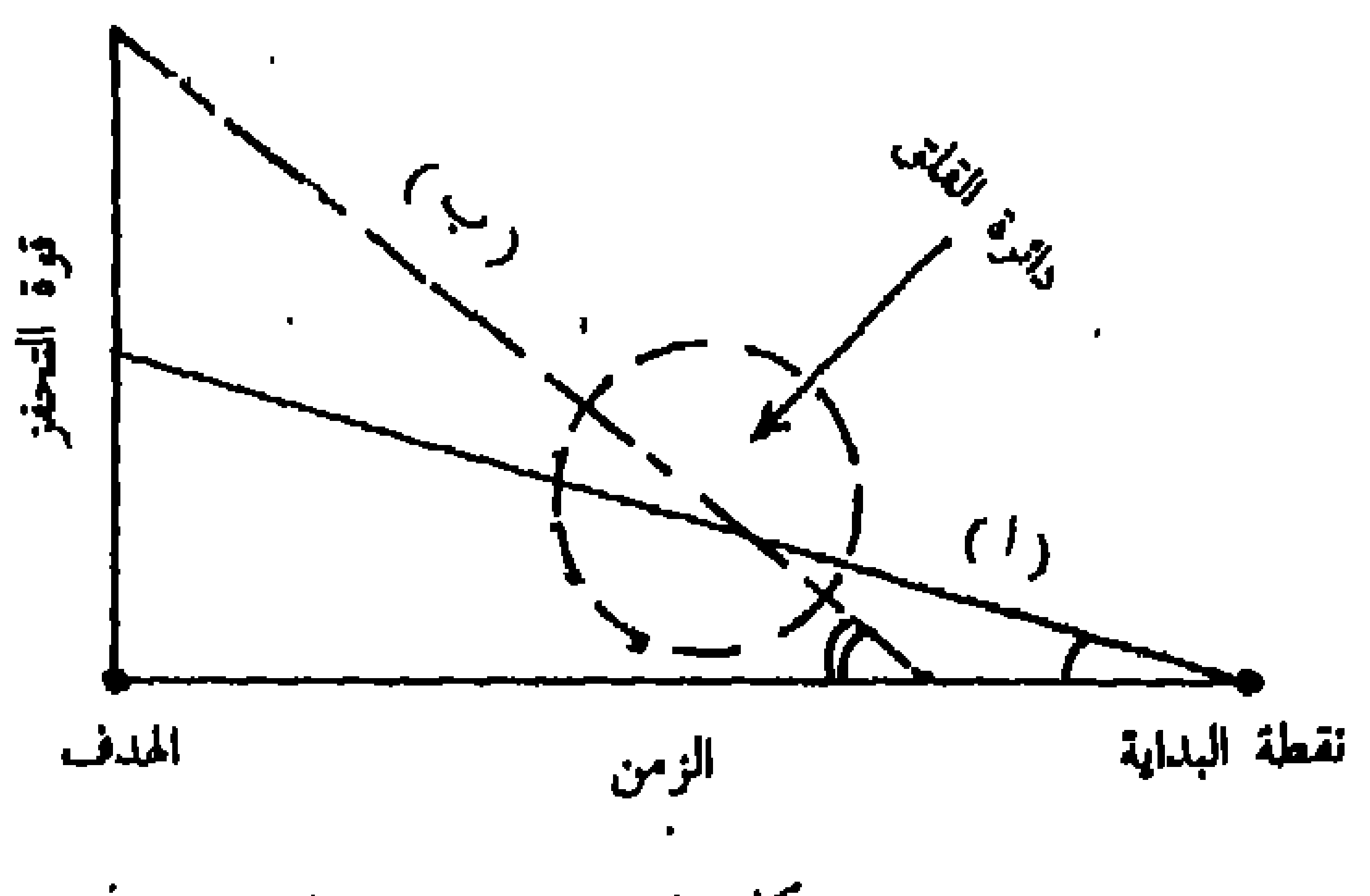
وحتى فى نظر نفسه ، لا يستطيع أن يواجه فشله مع أن عدم المحاولة ، هى فشل فى حد ذاته .

والشكل رقم (٣) رسم توضيحى يمثل التردد والقلق :

ـــ الخط العمودى يمثل الهدف

ـــ الخط الأفقى يمثل الزمن

(المدة بين البداية فى السعى نحو الهدف والوصول إليه)



شكل رقم (٣)

ـــ الخطان المائلان ، الأسود والمتقطع ، يمثلان الرحلة نحو الهدف .

فلو اعتبرنا مثلاً أن الهدف هو الذهاب إلى شخص للاعتذار له عن إساءة ، أو للتشاور فى شئون العمل ، أو مقابلة والد الفتاة التى أحبها لطلب يدها ، فإن الإنسان يبدأ فى التحرك من نقطة البداية قاصدًا إلى الهدف (أى المنزل

أو الشخص ... الخ) . وعند نقطة البداية يعتقد الشخص غير القلق ، أن الهدف سهل ويمكن تحقيقه فيتحرك نحوه . وكلما خطا خطوة يجد أنه أكثر تحفزًا ورغبة فى تحقيق الهدف . لكن عندما يستمر فى الحركة نحو الهدف يبدأ فى الشعور ببعض الصعوبة (عندما يصل ـــ مثلاً ـــ إلى الشارع الذى فيه البيت أو المقابلة) فيتصبب عرقًا ، لكنه يستمر حتى يصل ، وهذا ما يعبر عنه الخط الأسود (ا) .

أما الخط المتقطع (ب) فهو يمثل الرحلة نحو الهدف أيضًا لكن مع وجود عقبة « الخوف من الفشل » . فعند البداية يكون أكثر تحفزًا من الشخص غير القلق (لاحظ أن الزاوية أكبر) فهو يستمر فى الحركة نحو الهدف لكن شعوره بالخوف يكون أقوى من شعوره بالرغبة فى تحقيق الهدف . ولو تراجع إلى الخلف يكون شعوره بالرغبة فى تحقيق الهدف أقوى من شعوره بالخوف من الفشل . وربما يقضى هذا الشخص باقى عمره داخل الدائرة المرسومة حول نقطة التلاقى ، أى فى تردد مستمر وقلق .

ـــ كيف يمكن للقلق أن يسبب مشكلة أكثر تعقيدًا ؟!

القلق مرحلة تسبق مرحلة الإصابة بمرض عصبى أو نفسى . ويمكن القول بأن الشخص قد أصيب فعلاً بالمرض عندما يبدأ فى تجنب توجيه اللوم إلى نفسه . أو الهروب من مواجهة ذاته ، وهو ما يسمى بالانسحاب إلى الداخل . لذلك يجب أن يكون الاهتمام الأول ـــ فى مرحلة القلق ـــ هو التغلب على العقبة (الخوف من الفشل) والوصول إلى الهدف المطلوب . ويتم ذلك بتقييم السلوك الشخصى نحو الهدف ، ووضع خطة جديدة للتغلب على العقبة والوصول إلى الهدف . لكن إن كان الهدف الذى وصلنا إليه هدف غير كتابى أو غير روحى فإن الانسان لا يشعر بالاكتفاء على الاطلاق بل بعد وصوله يشعر بالجوع انظر شكل (١) .

إذن ما هو العلاج ؟!

يكمن العلاج فى تغيير الهدف الأساسى . فكل مشكلة يمكن تجنبها تمامًا لو أن الفرض الأساسى يتفق مع الحقائق الكتابية المعلنة .

والشخص المؤمن السوى هو الذى يعتمد على الله وحده ويتكل عليه . فأصل المشكلة يكمن فى الفرض الخاطىء الذى يتخذه الشخص ، حتى يصل لأهدافه .فكثيرًا ما نعتمد على كل الأشياء التى حولنا ــ إلا الله ــ لتحقيق إحتياجاتنا . « ذو الرأى الممكن تحفظه سالمًا سالمًا لأنه عليك متوكل . توكلوا على الرب إلى الأبد لأن فى ياه الرب صخر الدهور »[1] .

والسؤال الآن : كيف يضع الإنسان أهدافًا صحيحة لحياته ؟ ما الذى يجب أن يتغير ؟ ومن أين يبدأ التغيير ؟!

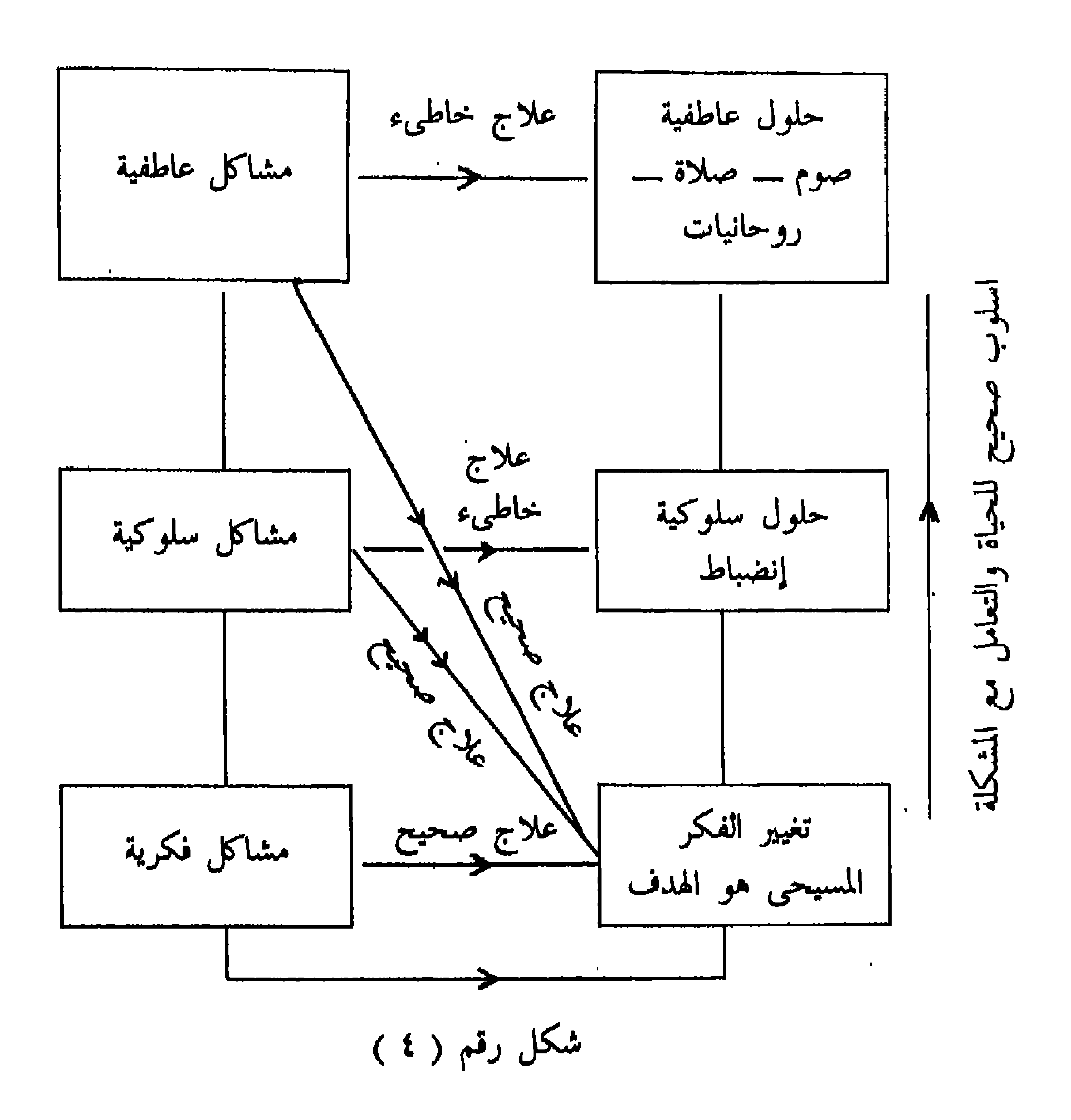
هنالك ثلاث بدايات للتغيير فيمكن أن نبدأ بتغيير العاطفة أو السلوك أو الفكر شكل رقم (٤) وتعالو بنا نرى أيهم الأفضل لعمل التغيير :

(ا) البداية بالعاطفة

إذا جاء شخص يعانى من مشكلة عاطفية أو نفسية مثل القلق وحاولنا أن نبدأ بتغيير العاطفة ، فنجلس معه ونفتح الكتاب المقدس على آيات تعالج القلق ، بمواعيد الله عن الحفظ والضمان ، ونطلب منه أن يؤمن بهذه المواعيد ، ثم نصلى معه ولأجله ، فإنه يستريح قليلاً ويتعزى ، ثم لا يلبث أن يرجع أكثر معاناة ، لأن المشكلة لم تناقش ولم تحل . وعندما لا تحل المشكلة العاطفية ، تتحول من داخل الإنسان إلى خارجه ، فى صورة سلوك خاطىء عدوانى ضد المجتمع الذى يعيش فيه .

---

١ ــ إش ٢٦ : ٣ ، ٤



مشاكل عاطفية
علاج خاطىء
حلول عاطفية
صوم ــ صلاة ــ
روحانيات
علاج
خاطىء
مشاكل سلوكية
حلول سلوكية
إنضباط
علاج صحيح
علاج صحيح
مشاكل فكرية
علاج صحيح
تغيير الفكر
المسيحى هو الهدف
اسلوب صحيح للحياة والتعامل مع المشكلة

شكل رقم (٤)

(ب) البداية بالسلوك :

حاول البعض تغيير السلوك نحو الهدف من سلوك مبنى على الخطأ والخطيئة ، إلى سلوك كتابى . وعلاج السلوك يؤدى إلى الكبت ، ولا شك أن البشر يروق لهم هذا السلوك الكتابى المستقيم . لكن السلوك السليم بدون تغيير للفكر ، ينتج سلوكًا بلا أساس فكرى صحيح ، ينتج عنه طاعة إجبارية ومصطنعة ، غير مرغوب فيها . وعلاج السلوك الخارجى فقط دون تعمق ، يؤدى إلى مشكلة فكرية ، فتصبح أيديولوجية الإنسان ، أن يتصرف كما يشاء بعيدًا عن عيون الناس . وتنقسم حياته إلى جانبين : جانب يظهر به أمام الناس ، والجانب الآخر عكسه تمامًا ، يظهر به بعيدًا عن عيونهم .

(جـ) البداية بالفكر :

عندما يأتى شخص بمشكلة عاطفية أو سلوكية أو فكرية ، يجب أن يبدأ التغيير من الفكر . وتغيير الفكر هو حل المشكلة من أساسها . فعندما تتغير حياة الإنسان ويولد من جديد بتجديد ذهنه ، كما قال يسوع لنيقوديموس : « ينبغى أن تولدوا من فوق »[١] . والولادة من فوق هى الولادة من الله ، بتغيير الفكر والذهن . وعندما يتغير الإنسان ، ويقبل المسيح فى حياته يصبح المسيح هدف الحياة ، حينئذ وحينئذ فقط ستتحول توجهات وأفكار الإنسان ، وبالتالى يتغير سلوكه ، ثم تأتى عاطفته نتيجة فكره وسلوكه . فعندما يقرأ مواعيد الله ويصلى ويمتلىء تعزية ، لا يكون هذا من فراغ ، أو لمجرد الهروب من المشكلة لتعود ثانية ، ولكن يتعزى لأن فكره قد تغيَّر وأهدافه تغيرت لتصبح فى إطار المشيئة الإلهية .

ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك . لو أن سيدة أُهملت من زوجها ، فوضعت

---

(١) يو ٣ : ٧

هدفًا لحياتها أن تعيد هذا الزوج إليها ، ثم بدأت فى السلوك الإيجابى للفت نظر زوجها . وهنا ستكون النتيجة شيئًا من اثنين : إما أن تفشل وتصاب بالإحباط أو تنجح ، ونجاحها لن يضيف لحياتها الروحية وعلاقتها بالله جديدًا قيمًا . لكن لو أن هذه السيدة تغير فكرها من نحو الله ، وبدأت علاقة صحيحة معه ، فالله سيعلّمها من خلال الكلمة أن المسيح هو الهدف من حياتها (تفكير سليم) ، وهذا التفكير سيساعدها لتصبح زوجة فى طريق المثالية (سلوك سليم) . وهذا ليس لتكسب زوجها أولاً ، ولكن لتسعد الله (هدف سليم) . فإذا بادلها زوجها الحب فهى قطعًا ستسعد بحبها وحياتها أكثر ، وتضيف جديدًا على اختياراتها : وإن لم يبادلها الحب ، فهى لم تزل سيدة آمنة سعيدة بالرب ، لن تصاب بالإحباط واليأس ، قادرة على تكرار المحاولة والاستمرار فى الطريق نحو الهدف . **ومثال آخر** : لو أن طالبًا اعتقد أن هدف حياته هو النجاح آخر العام ، فالسلوك الفعّال هو الاستذكار . فإذا نجح لن يضيف شيئًا لعلاقته بالله وإذا فشل أصيب بالإحباط . لكن لو تغيّر فكر هذا الطالب إلى فكر كتابى ، يصبح المسيح هو الهدف (تفكير سليم) ، وهذا التفكير يساعده على أن يكون طالبًا مثاليًا (سلوك سليم) ، لا لينجح أولاً بل ليسعد الله (هدف سليم) ، فإذا نجح سيسعد بهذا ، وإذا فشل سيكرر المحاولة دون يأس .

لكن تبرز مشكلة عندما نضع لأنفسنا أهدافًا ، لا يتوقف تحقيقها علينا نحن فقط ، مثل محبة الناس لنا ، أو محاولة جعل إخوتنا وأولادنا يتحدثون بلباقة . فما هو الحل ؟

الحل هو أن نحيا حسب المفهوم الكتابى . وقبل أن نغير الهدف ، علينا أن نغير الفكر من « أريد أن يتصرف الناس نحوى بطريقة صحيحة لأنى جدير بالاهتمام » ، إلى « أنا جدير بالاهتمام لأنى كابن لله قادر على تحمل المسئولية ، وبالطبع أريد من الناس أن يرضوا عنى . لذلك سوف أتصرف بأسلوب كتابى ، فلو استجاب الناس بصعوبة سأحزن ، وأعيد تقييم طريقى لأتأكد بأنها

كتابية . لكننى لن أكون أبدًا مهددًا بالضياع والقلق ، لأن إشباع احتياجاتى غير متوقف على استجابة البشر » .

وعندما يتغير الفكر ستتغير الأهداف ، لأنها تعتمد على الفروض الأساسية فى كيفية مواجهة الاحتياجات الشخصية . وإذا كان الفكر صحيحًا فى مواجهة الاحتياج ، أى متوقف على علاقتنا بالمسيح ، سنكون — قطعًا . فى الوضع الذى فيه تكون كل الأهداف ممكنة التحقيق .

وعلى أى حال يجب أن يكون الهدف العام للحياة هو « طاعة المسيح » .

ولقد وضع المسيح (هدف حياتنا) مبادىء خمسة ، إذا تبعناها نستطيع أن نتغلب كأولاد لله على القلق (مت ٦ : ٢٥ — ٣٤) :

المبدأ الأول : مبدأ استخدام منطق الاشياء

يقول المسيح « لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون . ولا لأجسادكم بما تلبسون . أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس »[١] .

والمسيح هنا لا ينهى عن الاهتمام العادى واليومى بالحياة ، لكنه ينهى عن القلق وحمل الهموم . ومحور الحديث كلمة « لا تهتموا » . والفعل فى الأصل اليونانى يفيد معنى القلق والهم . فالمسيح لا يشجع على حياة عدم الاكتراث أو اللامبالاة ، لكنه يحذّر من الهم والمخاوف والقلق ، التى تسلب الحياة بهجتها وصفاءها . إنه درس الحرص ممتزجًا بالثقة والاهتمام ، الخالى من الهم والقلق .

ولكى نصل إلى هذا المستوى من التدريب علينا أن نستخدم منطق الاشياء . فباستخدام المنطق نكتشف أن الإنسان يهتم بأمور أقل كثيرًا مما تستحق ، ويهمل

---

١ — مت ٦ : ٢٥

ما هو يستحق . فإذا فكر الإنسان جيدًا سيجد نفسه أضاع حياته في أمور تافهة . ولعل المسيح هنا لا يرفض أن نهتم أو نقلق ، بل يقول إن كان لابد من القلق والاهتمام ، فليكن في أمور تستحق هذا القلق وذلك الاهتمام . فبدلاً من أن تقلق لأجل الطعام إهتم بحياتك ، وبدلاً من أن تقلق لاجل اللباس إهتم بجسدك . فهذه الأمور أولى بالاهتمام . والحياة هنا تعنى النفس والجسد يعنى الصحة . فعندما يكون هم الإنسان الطعام فقط فيأخذ تدبيره لهذا الأمر كل وقته فلا يهتم بنفسه ، فيهمل تغذية الفكر ويتخلف عن ثقافة جيله ، ولا يغذّى روحه الايمان ، فيتخلف فى علاقته بالله ، ولا يغذى كيانه ووجدانه فيتخلف فى الذوق العام ، وفى استيعاب الصور الجمالية المختلفة من فنون واداب وشعر ... الخ ، فتصير حياته جافة بلا معنى وسعادته وهمية . ذلك لأنه اهتم بالطعام الجسدى أو باللحم فقط كما هو فى بعض الترجمات . ويقول المسيح أيضًا ، أليس الجسد أفضل من اللباس . وهنا يحذر المسيح بكل وضوح من إهانتنا لأجسادنا بزيادة ساعات العمل ، أو العمل تحت أجواء صعبة أو ضغوط جسدية معينة ، فتمرض فتنقل أنفسنا . ويتعجب المسيح كيف نهتم بما يلبس على الجسد لتزيينه ولا نهتم بالجسد نفسه . فعندما تضيع صحة الإنسان ، فماذا يعوضها ؟! اللباس الفاخر أم البيت الفاخر أم السيارة الفارهة ؟!

إنه يقول أن أولئك الناس الذين لا يهتمون بحياتهم الروحية والنفسية ولا بأجسادهم ، ويركزون على الطعام واللباس فقط ، إنما يهتمون بأشياء تافهة ، تهبهم سعادة وهمية ووقتية . إن السؤال الذى يثيره يسوع هل نحن نأكل لنعيش ؟ أم نعيش لنأكل ؟! أيهما أهم فى نظرك الحياة أم الأكل ؟! إن الحكمة الأبدية التى فاه بها يسوع مازالت تتردد فى الأرجاء : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان » . لماذا تقلق ؟ وبماذا تهتم وتنشغل ؟! هل هى مشكلة مالية ؟! لا شك أن الظروف ستتغير إن أجلاً أو عاجلاً ... هل المشكلة مع الزوجة فى البيت ؟ الله وأنت وزوجتك والزمن كفيلون بحل المشكلة . فلا توجد مشكلة أبدية بلا حل . هل تخاف المرض ؟! إن كنت لم تمرض بعد ، فلماذا

تخاف ؟ هل تفكر فى الموت ؟ الموت شيء طبيعى على كل بشر فانتظر . لماذا القلق والمشغولية والهموم ؟ إن المسيح يشجعنا على استخدام المنطق فى مقابلة الهموم . وإن كنا حقاً سنهتم ، فلنهتم بأشياء لها قيمتها .

المبدأ الثانى : مبدأ قيمة الانسان :

يقول المسيح « انظروا إلى طيور السماء . انها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن . وأبوكم السماوى يقوتها . ألستم أنتم بالحرى أفضل منها »[1] هذا بالنسبة للطعام . أما بالنسبة للباس : « تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو . لا تتعب ولا تغزل . ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها . فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غدًا فى التنور يلبسه الله هكذا ، أفليس بالحرى جدًا يلبسكم أنتم ياقليلى الإيمان »[2] .

هل نحن بقيمتنا كبشر قدام الله . إن ما يجعلنا نقلق ونرتبك هو الإحساس بانعدام قيمتنا لدى الله . إننا نعبد إلها يترفع عن البشر حسب تصورنا . أما الإله الذى يقدمه لنا المسيح ، فهو يهتم بنا لأنه يهتم بالطيور وبزنابق الحقل ، ونحن لديه أفضل كثيرًا من كل هؤلاء . إن الطيور رغم أنها لا تعرف كيف تزرع أو تخزن ، إلا أنها سعيدة لا تفكر فى الغد ، لأنها معتمدة على خالقها ، فهل نحن أقل قيمة فى نظر الله . إننا عندما نعمل ليل نهار ونقلق على مستقبلنا ومستقبل أولادنا ، نؤكد أنه لا قيمة لنا فى نظر الله .

إن الفكر المسيحى يعلن أن الله أهتم بخلاص الإنسان لأهمية الإنسان لديه ، ولأنه ذو قيمة فى نظره ، لذلك أحبه ، وفى محبته جاء فى يسوع المسيح وجُرِّب فى كل شيء شاعرًا بآلامنا وتجاربنا ، ومات لأجلنا وقام ليصنع لنا خلاصًا .

---

(١) مت ٦ : ٢٦

(٢) مت ٦ : ٢٨ ــ ٣٠

فإن كان الله قد صنع كل هذا من أجلنا ، فليس أقل من أن يهتم بمشاكلنا وأمور حياتنا . ففى كل مرة يفكر فيها قلبك ، يفكر قلب يسوع .

إن الفكر المسيحى هو الفكر الفريد الذى ينيِّر على أهمية الإنسان عند الله ؛ فلقد خلقنا على صورته فهو يمتلكنا . والحد الأدنى لاهتمامه هو توفير الأكل والملبس لكل المخلوقات . ولذلك نحن كمؤمنين نضيع أوقاتنا فى طلب الأكل والملبس ، فى حين أن هذه مسئولية المالك . فهو يعلم ما نحن بحاجة إليه ، فلماذا نقلق ؟ وأكثر من هذا فإن الله يهتم بنا كأولاده . يقول المسيح : « فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس . فإن هذه كلها تطلبها الأمم . لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها »[1] .

فكيف يكون لى أولاد ولا أسخر كل طاقاتى وإمكانياتى لهم ... هكذا يفعل الله معنا .

فى إحدى المرات عاد سبرجن الواعظ واللاهوتى المشهور من خدمة له ، وهو مملوء باليأس والقلق لأجل إحتياجات غير متوفرة لديه . وفتح كتابه المقدس على رسالة كورنثوس الثانية فى الأصحاح الثانى عشر ، وفيه يحكى بولس عن معاناته من شوكة الجسد ، ووقف عند الكلمات « تكفيك نعمتى »[2] . ويقول سبرجن أنه تخيل سمكة صغيرة فى نهر التيمس قلقة ومهمومة ، تقول فى نفسها لو شربت كل مياه النهر فهل سأموت بعد أن تنتهى ؟ وسمعت صوت الله يقول لها لا تهتمى تكفيك مياهى ، إشربى كما تشائين . ويقول أنه تخيل فأراً صغيرًا فى مصر فى عهد يوسف ، قابع فى أحد أجران القمح قلق ومهموم ، يقول ماذا آكل بعد انتهائى من الجرن . وسمع الفأر

---

(١) مت ٦ : ٣١ ، ٣٢

(٢) ٢ كو ١٢ : ٩

صوت الله قائلاً له يكفيك قمحى كل كما تشاء . ثم يقول تصورت إنسانًا يقف على جبل عالٍ ويقول استنشقت كل الهواء هل سأموت ؟! وسمع صوت الله قائلاً له يكفيك هوائى تنفس كما تريد . يقول سبرجن عندئذ فهمت لماذا أخرج الله ابراهيم خارج الخيمة عندما كان مهمومًا وقلقًا لأنه لم يلد بعد ، وقال له : ياإبراهيم عد نجوم السماء ، ويقول سبرجن إنه تخيل ابراهيم وقد بدأ يعد النجوم ، ويضحك ... ويضحك ... ويضحك على نفسه لأنه اهتم بأن يكون له ولد .

المبدأ الثالث : مبدأ قبول الذات

يقول المسيح « ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعًا واحدة »[1] وهو يعلِّم هنا أن هناك أشياءً يجب أن تقبلها كما هى ، لأننا لا نستطيع تغييرها . إن قبول الذات من أهم الأمور التى تجعلنا تتغلب على الهم والقلق . فالشكل واللون والعائلة والجنس ، يجب أن أقبلها كما هى بل وأحبها ، لأنى لا أستطيع أن أغيرها . ليس هذا فقط ، بل فى كل ظرف أو أمر أقابله ، علىّ أن أسأل : ما الذى يمكن أن أفعله فى هذا الأمر بالذات ؟! ولابد أن أجيب أجابة واضحة ومحددة . فإن كان الأمر لا أستطيع أن أغيِّر منه شيئًا ، كموت صديق أو حبيب أو تشويه كبير فى الوجه نتيجة حادثة أو ... الخ فأتقبله كما هو . أما إذا كان الأمر يمكن تغييره ، فلأغيره بكل إرادتى وقوتى . هنالك صلاة شهيرة تقول : يارب ساعدنى على أن أغير ما أنا قادر على تغييره ، وأن أقبل ما لا أستطيع أن أغيره ، وأن أفرِّق بين الاثنين .

ومعرفة الفرق بين الاثنين هام جدًا ، لئلا أضيِّع وقتى وجهدى فى شىء لن يتغير ، أو أخسر كثيرًا عندما أتوانى فى تغيير أشياء يمكن أن تتغير .

---

(١) مت ٦ : ٢٧

قال عالم نفسى مسيحى « إن كنت لا تستطيع أن تتغلب على شيء ما ولا أن تتحاشاه ، تقبله كما هو » . ولقد أوصانا الله بأن نحب أنفسنا بمعنى أن نتقبلها ونسعد بها ، عندما قال « تحب قريبك كنفسك »[1] .

المبدأ الرابع : مبدأ ترتيب الأولويات

يقول المسيح « لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم »[2] وهنا ينبر المسيح على مبدأ هام جدًا هو مبدأ ترتيب الأولويات فى حياتنا . فعندما تعرف جيدًا ما الذى يأتى أولاً فى حياتك ، ثم ما الذى يأتى فى المرتبة الثانية ، أو ما هو الأساسى وما هو الثانوى ، فعندئذ سوف تتخلص ــ بسهولة ويسر ــ من كل قلق وتوتر . ويطلب المسيح أن نضع ملكوت الله وبره كأولوية أولى فى حياتنا . عندما يبدأ شخص ما فى دروس تعليم الغطس تحت الماء ، فأول درس يتعلمه يقول إجعل إتجاه رأسك صحيحًا . فكل شيء بعد ذلك سينضبط . فليست الأولوية فى درس الغطس لكيفية وضع اليدين أو القدمين معًا ، لكن الرأس أولاً . فى حياتنا أشياء هامة كثيرة ، كالمال ، والأطفال ، والأسرة ، والعمل . لكن لا بد وأن نفرق بين ما هو هام فى حياتنا وما هو أولى بالاهتمام . فليكن الله أولاً ، فى كل ما هو هام فى حياتنا .

فى كثير من الأحيان يطغى الهام على الأهم ، والملح على الضرورى . فهناك أشياء ملحّة كثيرة فى حياتنا ، مثل الأكل ــ والدراسة والمجاملات ... كل هذه أمور ملحّة لكنها ليست ضرورية كملكوت الله الذى يجب أن يتخللها كلها ، ويكون على رأس كل أمر ملح . فإذا طلبنا أولاً ملكوت الله وبره ، فهذه

---

(١) لا ١٩ : ١٨

(٢) مت ٦ : ٣٣

كلها تزاد لنا .

جاء شخص ليسوع يقول له : ياسيد أتبعك ، لكن إئذن لى أولاً أن أذهب وأدفن أبى . والمقصود هنا أن يبقى فى البيت مع أبيه حتى يموت كأولوية فى حياته ، ثم يتبع يسوع بعد ذلك . قال له يسوع : دع الموتى يدفنون موتاهم . وجاء آخر بنفس الطلب لكن أولويته كانت الأسرة ، يريد أن يودعها أولاً . والسؤال هنا ما هو الأمر الذى ينبغى أن يأخذ الأولوية فى حياتنا ؟!

يقول المسيح إن سبب الهموم التى نعانيها والقلق ، هو أننا لا نعرف كيف نرتب أولويات حياتنا . فحياتنا ضرب من الفوضى ، لذلك زاد قلقنا وهمنا .

المبدأ الخامس : وضع المشكلة فى حجمها الطبيعى

يختم المسيح علاجه للقلق بالقول « فلا تهتموا للغد ، لأن الغد يهتم بما لنفسه . يكفى اليوم شره »[1] إن المشكلة تكتسب أهميتها بمقدار الحجم الذى نعطيه لها . فالأحداث فى حياتنا بعيدة بقدر ما نقرر المسافة بيننا وبينها ونحددها . لذلك يقول المسيح إهتم بما يحدث اليوم فى شكله المحدد ، ولا تفكر بما سيأتى به الغد ، وعندما يأتى تعامل معه فى الغد . فاليوم لديك الكثير لتفكر فيه وتتدبره .. إن الظروف والأحداث ، لها جدول زمنى فلا تستعجلها ... إننا كثيرًا ما نعطى المشكلة أكبر من حجمها الطبيعى لأننا نستدعى الغد ونضعه على مشاكل اليوم ، أو لأننا نعيش اليوم فى مشكلة الأمس ، فأى مشكلة .. تضاف إلى مشاكل اليوم ، تتضخم وتكبر .

إن القلق لا يؤثر فى الماضى لأنه مضى وانقضى وما كتبته أصابع التاريخ لن تمحوه الدموع ، ولا تغيره الجهود ، فما فات قد فات . وليس معنى ذلك

---

(١) مت ٦ : ٣٤

أن يفصل الإنسان نفسه عن ماضيه . فإننا نتعلم من الماضى دروسًا للمستقبل . لكننا لا يجب أن نقلق لأجل أحداث مؤلمة مضت ونبكى عليها ، حتى نشفى فى حاضرنا ... كما أن القلق لن يفيد المستقبل ، فإن القلق لأجل المستقبل مجهود ضائع . فلن يكون المستقبل مخيفًا بالشكل الذى نتصوره ونخاف منه . فالقلق ضار بصحتنا ويؤثر على حكمنا على الأمور ، ويضعف قدرتنا على إتخاذ القرارات الحاسمة ، ويجعلنا تدريجيًا عاجزين عن مواجهة الحياة . فعلى الإنسان أن يبذل جهده فى كل موقف يواجهه على حدة ، فى المكان والزمان .

هذه المبادىء الخمسة يقدمها لنا يسوع كتدريب للتغلب على القلق فى حياتنا .

إن القلِق يرفض أن يتعلم عن قيمتنا لدى الله وبنوتنا له من مدرسة الطبيعة ، كما يرفض أن يستخدم منطق الأشياء ، كذلك يرفض التعلم من مدرسة التاريخ ومن أعمال الله السابقة معنا ، ولا يثق فى قدرتنا على الانتصار . قد تكون هناك خطايا أعظم من القلق ، لكن لا توجد خطية تجعل الإنسان عاجزًا مثل القلق . « لا تهتموا » هذه هى وصية المسيح ، ليس لأجل التمتع بالسلام الداخلى فقط ، بل لاجل القوة المنطلقة بلا حدود .

طرق وأساليب عملية تساعد فى التغلب على القلق :

١ ـــ تحدث عن قلقك وهمومك مع إنسان ما ، بعد اختيارك له بعناية . تحدث بصراحة كاملة معه . فأحيانًا نذكر أشياء ثانوية ، دون السبب الرئيسى للقلق ، ويفضل أن نتحدث إلى شخص واحد فقط ، لأن كثرة المشيرين قد تأتى بنتيجة عكسية .

٢ ـــ لا تقاوم القلق بل تخلَّى عنه لله ـــ تعلم من الصلاة . إن حاربت مخاوفك فسيتركز فكرك على هذه المخاوف ، لذلك قدمها لله فى مناخ الصلاة الصحيح وتخلى عنها .

٣ ـــ أنظر إلى الحقائق بإمعان لتعرف حجمها الحقيقى والطبيعى . ففى أحيان كثيرة تكون المشكلة أمامنا أكبر كثيرًا من حجمها الطبيعى ، بسبب تخيلاتنا وتكويننا . فالأوهام والمخاوف تصور لنا المشكلة وكأنها نهاية العالم ، وهنا يتدخل العقل الباطن فى المشكلة فيختلف رد الفعل من إنسان لآخر . لذلك علينا أن نعرف حجم المشكلة بالضبط ، ثم ليكن الله هو النقطة المركزية فى حياتنا .

٤ ـــ تذكَّر أن ما من شىء يحدث لك يمكن أن يكون أسوأ من القلق ذاته . قال أحدهم : « من يخاف ـــ الألم ، هو فى حالة ألم ، لأنه يخاف » .

٥ ـــ إبق على روح المرح فيك ... النظرة الساخرة للحياة ... فالحياة ملهاة ساخرة :..

٦ ـــ قم بعمل ما ، لشخص ما ، كل يوم . فالعطاء يزيل التوتر .

الفصل الثامن

كيف تحقق السعادة ؟

لا شك فى أن الإنسان منذ وجوده عل الأرض وحتى اليوم وهو يبحث عن السعادة . والسعادة لا تأتى إلا إذا توصَّل الإنسان لأفضل طريقة يعيش بها حياته ، أو الطريقة المثلى التى يستخدم بها ما بين يديه من وقت ومال . ولقد رسم الله طريقًا للإنسان — إذا اتبعه — تجعل حياته أكثر سعادة وبهجة . فالذى يعتقد أن طريق الله هو طريق الحزن والألم والهروب من الحياة وعدم مواجهتها ، فقد فهم الله بطريقة خاطئة . فالله يعلّم الإنسان كيف يضع الشىء الصحيح فى مكانه الصحيح ، وكيف يتعامل مع المعطيات الحياتية التى وهبها له من طبيعة وأشياء وأموال ومواهب بالأسلوب الأمثل ، لكى تتحقق له السعادة الكاملة .

والمال من الأمور الحياتية المختلف عليها بشدة . فالبعض يعتقد أن المال هو سر سعادة الإنسان ، والآخر يظن أنه مصدر الشقاء . والاثنان يحاولان أن يجدا ما يؤيد فكرهما من الكتب المقدسة .

وبادىء ذى بدء نقول إن الله ليس ضد المال ، لكنه يطلب أن نضعه فى المكان المناسب له ، ويؤكد أن سعادة الإنسان غير مرتبطة به بشكل مطلق . ولكى نحسم الأمر علينا أن نأتى لتعليم المسيح : « لا تكنزوا لكم كنوزًا على الارض من حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون ، بل اكنزوا لكم كنوزًا فى السماء حيث لا يفسد السوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ويسرقون ، لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضًا . سراج الجسد هو العين . فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيرًا .

وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلمًا . فإن كان النور الذى فيك ظلامًا ، فالظلام كم يكون . لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون أن تخدموا الله والمال »[١] .

ويقدم المسيح هنا أربعة مبادىء لتحقيق السعادة :

الأول : لا تبنى سعادتك على شىء تعجز عن الاحتفاظ به أو صيانته :

« لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض ... حيث يفسد السوس ... » .

والمسيح هنا لا ينفى وجود المال أو أهميته ، فلا بد وأن يكون لدينا مال . لكن المشكلة هى : أين نضع المال ؟! فالمكان الذى نكنز فيه هو المشكلة الحقيقة ، وليس المال فى حد ذاته . فى القديم كان الناس يضعون الذهب والفضة فى الحائط ، وفى باطن الأرض حيث لم تكن هناك نقود ورقية . وبسبب الرطوبة والتربة قد تتأثر هذه النقود وتتلف ، كما يمكن أن تتعرض للسرقة . والشىء الذى لا خلاف عليه هو أن الإنسان غير قادر على الاحتفاظ بالمال إلى الأبد ، لأن طبيعة الأشياء هى التغير . فقيمة المال قد تتغير ، والإنسان أيضًا لا يمكن أن يبقى كما هو . فإذا استطاع إنسان ما أن يجمع مالاً لا يستطيع أن يوقف الزمن ؛ فهو يشيخ ويموت « أوصى الاغنياء فى الدهر الحاضر أن لا يستكبروا ولا يلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى بل على الله الحى الذى يمنحنا كل شىء بغنى للتمتع »[٢] .

ويقدم المسيح هنا أول مفتاح للسعادة ؛ وهو ألا تتعلق نفس الإنسان بأشياء

---

(١) مت ٦ : ١٩ ــ ٢٤

(٢) ١ تى ٦ : ١٧

متغيرة يكون هو نفسه غير قادر على حمايتها أو صيانتها فانهيار الأمور المحبوبة أمام الإنسان أو انهياره هو أمامها يفقد الإنسان معنى الحياة والسعادة . وكم من أناس فقدوا حياتهم أو ماتوا أدبيا لتعلقهم بأشياء تفنى . ولذلك يقول المسيح ، لا تبنى حياتك أو سعادتك على شيء طابعه التغير ، أو غير مضمون . ولا تبنى حياتك وسعادتك على أوهام وسراب . إن الاموال والأشياء وسائل لتحقيق السعادة لكنها ليست هى المصدر الأصلى للسعادة ، لأنها قابلة للفناء والانهيار .

المبدأ الثانى : لا تفرّط فى مصدر مضمون للسعادة

يقول المسيح « بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء ، حيث لايفسد سوس ولا صدأ ، وحيث لا ينقب السارقون ويسرقون » .

وهنا نجد الجانب الايجابى ، حيث يقول ضع كنزك حيث يمكنك الاحتفاظ به للأبد ، وحيث من المستحيل أن تخسره . والكنز الحقيقى الذى لايبلى ، ويحقق السعادة الدائمة للانسان ، هو معرفة الطريق الصحيح إلى الله: علاقة صحيحة مع الله وفى الله ، ومعرفة المسيح والوجود فيه . والوجود فيه يعنى عطاء الذات مثله . فنحن نعيش أزمة عطاء وتضحية . نعيش حياة التقوقع على الذات والأنانية .، فقد أصبح كل شيء ماديًا ويقاس بالماديات . لكن متى أصبح الله كنزك ، فسيبقى إلى الأبد . فليكن الله مصدر السعادة الثابت بالنسبة لك ، وهو قادر أن يستخدم الأشياء المتغيرة الفانية لإسعادك ، أو كوسائل لتحقيق سعادتك فيه . فهو يستخدم المال والأبناء والصحة والمواهب ، كوسائل تتحقق من خلالها السعادة . لذلك لا تخسر مصدر السعادة الذى يمكن أن تضمنه .

المبدأ الثالث : لا تنساق لشيء أنت لا تحبه :

يقول المسيح : « لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضًا » .

والمسيح يضع هنا فكرة ، ربما تغيب عن بال الكثيرين ، وهى فكرة تبعية القلب والعواطف للكنز وليس العكس ، أحيانا نظن أن القلب يحب الله ، بينما الفكر يعشق المال . أو ما يقوله بعض المؤمنين إن قلوبنا مع الله لكن عقولنا منطقية ، ولذلك تدعونا دائمًا لأن نفكر فى المال . ولذلك فنحن نجمع المال ، رغم أننا نحب الرب جدًا ،لكن المسيح يقول إنتبه ، فالشىء الذى يأخذ عقلك ووقتك وجهدك سوف يأخذ قلبك وعواطفك بعد ذلك . وهذه نقطة خطيرة لأنها تصنع انقسامًا فى داخل الإنسان .

والمشكلة تتركز فى أننا نضع الله والمال على طرفى نقيض وعلى مستوى واحد ، بمعنى إما الله أو المال . فليس المقصود أن نجعل الله كل شىء والمال لاشىء أو العكس ، لكن المقصود من هو أولا فى حياتنا ؟ إذا كان المال أولاً فى حياتك فعليك أن تحبه وتضع قلبك وفكرك عليه ، فلا تنقسم داخليًا . وهذا سيحقق لك نوعًا من السعادة المؤقتة التى تنتهى بانتهاء المال أو الحياة . أما إذا كان الله أولاً فلتضع قلبك وفكرك فيه ، وتحبه بكل القلب والفكر والنفس ، وهذا يحقق لك السعادة الأبدية . يقول داود فى أحد مزاميره : « وحد قلبى فى خوف اسمك » . **إن القلب المنقسم يجلب التعاسة ، بينما تتحقق السعادة فى وحدة القلب والفكر والهدف والاتجاه ، لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا .**

المبدأ الرابع : لا تتجاهل حقائق ثابتة من الصعب إسقاطها

ويقدم المسيح حقيقتين من المستحيل تجاهلهما :

الحقيقة الأولى : سراج الجسد هو العين :

فهذه حقيقة لا يمكن تجاهلها .. فإذا كانت العين بسيطة وكلمة بسيطة هنا تعنى غير مركبة أى أحدية النظرة والاتجاه ـــ فالجسد كله يكون نيرًا ، لأن أولويته واضحة من خلال العين . وإن كانت العين شريرة ـــ والمعنى هنا

« مركبة » أى تنظر فى إتجاهات متعددة ـــ فالجسد كله يكون مظلمًا ، لأنه ـــ فى هذه الحالة ـــ ينقسم على ذاته ، ويحدث صراع باطنى يكون من نتيجته تحطيم الإنسان من الداخل .

ولقد ضرب المسيح مثلاً برجل يهودى وقع بين لصوص فعروه وجرحوه وتركوه بين حىّ وميت .. مر عليه كاهن يهودى ثم لاوى يهودى ولم يعيراه إلتفاتًا . ثم جاء رجل سامرى عدو لليهود ، فمال عليه وضمد جراحاته وحمله على دابته إلى الفندق .

فى هذه القصة البسيطة نجد ثلاثة نماذج للعين الإنسانية : **الأولى عين اللص التى تقول : كل ما هو لك هو لى** . وفى حالة احتياجى سأسدد هذا الاحتياج من ممتلكاتك حتى دون رضاك . وسأنتهز أى فرصة لتحقيق ذلك ، ولو اضطررت لاستخدام العنف فسأفعل دون تردد ، لأنه لماذا أنت تملك وأنا لا أملك . وهذا نموذج العين المركبة ، التى ينتهز صاحبها أى فرصة للكسب الحرام أو الرشوة أو السرقة والاغتصاب ... الخ .

والنموذج الثانى : عين الكاهن ، ولسان حالها ، كل ما هو لى هو لى : فما صنعته لنفسى وتعبت فيه يحقق لى السعادة ، ولن أعطى أحدًا منه حتى فى إحتياجه ، وإن كان من أقرب الناس إلىّ . وهذا نموذج للعين المركبة أيضًا ، وإن كانت أقل تعقيدًا .

أما النموذج الثالث : فهى عين السامرى . لقد كانت عينه بسيطة ولسان حالها : **كل ما هو لى هو لك** .وعندما تحتاج ، يسعدنى أن أقدّم وأسدّد احتياجك .

إن العين الشريرة هى تلك التى تجلس أمام التليفزيون ، وتنظر بشراهة لكل ما يعرض أمامها ، وتتمنى أن تحصل على كل شىء تراه وتحس بالتعاسة لأنها لم تحصل عليه . **يقول المسيح : لكى تتحقق سعادتك فى الحياة تعلم الاكتفاء ودرب عينك على أن تكون بسيطة .**

الحقيقة الثانية : لا يقدر أحد أن يخدم سيدين :

وهذه حقيقة لا يمكن تجاهلها فى حياتنا ، لأنه من المستحيل وجود سيدين لعبد واحد . فعلى الإنسان أن يحدد من هو سيده : هل هو الله أم المال . وعندما يحدِّد الهدف ، يستطيع أن يسير فى اتجاهه دون تقلقل أو قلق . فالإنسان الذى يرتب أولوياته جيدًا ، يكون قادرًا على صنع سعادته .

وهكذا نرى أن السعادة ليست أمرًا مستحيل التحقيق ، بل هى فى متناول الإنسان ، إذا لم يبن سعادته على شىء يعجز عن الاحتفاظ به كالمال أو المركز أو الأشخاص ، بل يبنيها على مصدر مأمون ومضمون ، هو الله ، فى نفس الوقت الذى يصنع فيه مصالحة داخلية بين فكره وقلبه ، ولا يتجاهل حقيقتان ، هما : أهمية الاكتفاء ، واستحالة خدمة سيدين .

الفصل التاسع

اللعب بالكلمات

من الدواوين الشعرية الممتعة للشاعر نزار قبانى ، ديوان « الرسم بالكلمات » . وفيه يرسم لوحات بديعة الجمال ذات أبعاد وألوان ، بكلمات موزونة فى سلاسة وتدفق عجيبين . والكلمات التى استطاع أن يرسم بها نزار قبانى لوحاته هى نفس الكلمات التى يلعب بها الإنسان فى علاقته بالله وبأخيه الإنسان ، ليوحى بأشياء لا يقصدها . ويحاول أن يطيع الوصية بكلمات دون طاعة حقيقية ؛ فهو يُظهر غير ما يبطن ويبطن غير ما يُظهر . يتحايل حتى على كلمات الله الموحَى بها ، ويفسرها على هواه أو بما يرضيه .

ولقد تصدى المسيح لمحاولة شهيرة ، قام بها الإنسان للتحايل على وصية من الوصايا ، هى وصية القسم بالله . ولقد اهتم المسيح بهذه الوصية لما لها من خطورة على التكوين الروحى والنفسى للإنسان . فلم ينظر إليها كمجرد ذكر لاسم الله فى الحديث أو تأكيد الإنسان لصدق ما يقول ، بل نظر إليها بصورة أعمق وأوسع . ولذلك قال : « سمعتم أنه قيل لا تحنث . بل أوف للرب أقسامك . وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة . لا بالسماء لأنها كرسى الله ، ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه ، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم . ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء ، بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا . وما زاد على ذلك فهو من الشرير »[1] .

فى هذا الحديث يريدنا المسيح أن نتعلم أربعة دروس حتى لا نلعب .

---

(١) مت ٥ : ٣٣ — ٣٧

بالكلمات . وبعد ذلك يوضّح لنا حكمته فى رفضه للقسم مقدمًا أربعة أسباب تدعو لهذا الرفض . أما الدروس التى علينا أن نتعلمها حتى لا نلعب بالكلمات فهى :

الأول : الفارق بين قوة اللغة وصدق اللغة :

فالمسيح يريدنا أن نفرق بين أن تكون اللغة جميلة ، قوية ، فخمة ، نثرًا كانت أم شعرًا ، وبين أن تكون لغتنا صادقة ومعبرة عنا بأمانة . إنه يريدنا أن نستخدم الكلمات فى مكانها وبمعانيها المحددة . ونحن فى أحيان كثيرة نستخدم القسم لعجزنا عن التعبير عن ذواتنا بصدق وأمانة . ومشكلة القسم عند الإنسان هى إحساسه بأن كلماته لا تصل إلى الآخرين ، ولا يحسونها ، ليس بسبب ضعفها اللغوى أو الشكلى ، لكن لعدم صدقها ، لذلك نستخدم القسم ليل نهار وبمناسبة وبغير مناسبة .

إن قوة اللغة وجمالها ليست هى الوسيلة المثلى لتوصيل أحاسيسنا للآخرين ــ وإن كان هذا مطلوبًا فى بعض الأحيان ــ لكن الصدق يأتى أولاً ، ثم بعد ذلك الجمال . نحن فى أمس الحاجة لنغمة الصدق فى كلامنا مع بعضنا البعض . إن التكوين الداخلى للإنسان من فكر ونفس وروح يُعبِّر عنه بواسطة الفم والشفاة . فإن كان التكوين خاطئًا أو تشوبه شائبة ستكون الكلمات المنطوقة خاطئة وكاذبة . جرَح مارك توين المؤلف المشهور أذنه وهو يحلق ذقنه فصرخ متألمًا ، قائلاً لزوجته لقد قطعت أذنى . ولكى تخفف زوجته عنه رددت نفس الجملة « لقد قطعت أذنى » ، وهى تضحك . فقال لها بغيظ لقد ردّدت نفس الكلمات لكن ليس بنفس النغمة ، فنغمة حديثها لا يعبِّر عن الجملة « لقد قطعت أذنى » ، لأنها لا تحس داخليًا بالجرح .

إن المسيح يطالب بالصدق فى نغمة الحديث ، لنعبِّر عن مشاعرنا بصورة صادقة . إنه لا يريدنا أن نتحدث إلى الناس وكأن كل شىء على ما يرام .

كالأزواج والزوجات الذين يمثلون مشاعر كاذبة أمام الناس ، بينما حياتهم الداخلية جزء من الجحيم .

وعندما يقف إنسان ليصلى إلى الله فيغير نغمة حديثه العادية ، أو نبرة صوته ، أليس هذا كذبًا ؟! عندما نجامل إنسانًا ما ، فى حزن أو مرض لماذا نغير نبرة أصواتنا ونجسِّم التعبيرات الضخمة على وجوهنا ، فى الوقت الذى فيه نحن من الداخل لا نحمل كل هذا الكم من الهم أو الحزن . إن المسيح يرفض هذه النوعية من البشر ، التى تتحرك فى وسط الناس ، تردد كلمات محفوظة لا معنى لها ، أو مصطلحات روحية محفوظة ، دون إحساس داخلى بها ، أو تظهر بإبتسامات مصطنعة لا تعبِّر عن فرح حقيقى بالداخل . إن المسيح يعلِّم إنه يجب أن نستخدم كلمات تعبِّر فعلاً عن مشاعرنا وأحاسيسنا ، دون زيادة أو نقصان ودون تمثيل أو تجميل . **إن القوة ليست فى استخدام تعبيرات لا نحسها ،بل القوة هى فى إخراج أحاسيسنا الداخلية بصدق إلى الناس .**

لقد بُكِّت الناس على خطاياهم أمام المسيح ، لا لأنه كان يستخدم تعبيرات ضخمة وفخمة ، لكن لأنه كان يتحدث بصدق الإحساس واستقامة القلب . لقد تعمد ثلاثة آلاف شخص يوم الخمسين ، ليس بسبب بلاغة بطرس ، لكن لصدقه فى التعبير عن ذاته وعن كلمة الله . دعونا نكون واقعيين مع أنفسنا ومع الآخرين . نحن لسنا فى حاجة لأن نضع على وجوهنا وشفاهنا تعبيرات قوية وجميلة تجعل الناس ترانا كقديسين ، بقدر ما نحتاج إلى أن نعبِّر عن ذواتنا بكلمات مباشرة صادقة نحو بعضنا البعض . **إن الحق لا يحتاج إلى كلمات قوية وقسم لتثبيته ، لذلك فلنتركه يصل إلى الناس على سجيته بسهولة ويسر وعمق وإحساس .**

الدرس الثانى : التحرر من التفسير النفسى والإجتماعى لوصايا الله

بالرجوع إلى الوصية الثالثة ، التى تتحدث عن القسم ، نجدها تقول « لا تنطق باسم الرب الهك باطلاً . لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلاً » . والنطق باسم الرب باطلاً هو ما عبَّر عنه المسيح بالحنَث . فلكى يهرب الإنسان من هذه الوصية ، قال بأن الإنسان الذى يحلف بأى شيء غير الله ، يمكن أن يحنث فى حلفه دون عقاب . فطالما لم يذكر اسم الله فى حلفه ، فله الحق فى أن يرجع عن هذا الحلف .... وهكذا تفنن الناس فى الحلف بأشياء تحاشوا فيها ذكر الله ، مثل الحلف بالأرض أو السماء أو رأس الإنسان ... وهكذا . وكانت الفكرة من وراء هذا الاعتقاد هى أنه إذا حلف الإنسان ذاكرًا اسم الله فهو يعتبر الله شريكًا فى المعاملات وشاهدًا عليها . أما إذا لم يذكر اسم الله فلا يكون لله دخل فى هذه المعاملات ، وهكذا يمكن أن يحنث فى حلفه . وهذا ما دعوناه اللعب بالكلمات . والمسيح يقول إن هذا التفسير للوصية يعتبر تفسيرًا سخيفًا ، لأنه يرتبط بتقاليد الناس وحاجتهم للحلف والحنث ، ولا يرتبط بفكر الله المطلق .

إن التفسير النفسى والاجتماعى للوصية هو أن نأتى إلى الوصية ونحاول إشباع إحتياجاتنا النفسية والاجتماعية من خلال تفسيرنا لها بصورة ملتوية ... إنه الدعوة للتمسك بحرفية الوصية وإهمال روحها ، لتحقيق ما نحن بحاجة إليه . ونحن نفعل هذا كثيرًا عندما نحاول أن نجد الله فى كلمات معينة أو أساليب وصياغات وقوالب محددة طبقًا لأعرافنا وتقاليدنا . فدور المرأة — مثلاً — فى المجتمع وفى الكنيسة تحده — بصورة بغيضة — تقاليدنا الشرقية وحرفية الوصية ، حيث لا نعتمد فى تفسيرنا للوصية على روحها . وذلك لأن الحرف يتفق مع التقليد والظروف النفسية والاجتماعية التى يعيشها مجتمعنا . إن الحرف يقتل أما الروح فيحيى . **ويعلمنا المسيح أنه يجب علينا أن نتعلم الكتاب ، لا أن نأتى إليه بفكر مسبق ، فنصبغه بحالتنا النفسية والاجتماعية . إننا بحاجة إلى أن نفهم ما يريد الله أن يقوله لنا ، لا ما نريد نحن من الوصية .**

الدرس الثالث : الإحساس بحلول الله فى كل شيء

لقد أراد الناس تنفيذ الوصية : « لا تنطق باسم الرب الهك باطلاً ، فحلفوا بالسماء والأرض وأورشليم ورأس الإنسان ، واعتبروا أنهم إذ تحاشوا ذكر اسم الله فى القسم ، لم يكسروا الوصية . ولكن المسيح يفاجئهم بأن الله حال فى كل هذه الأشياء التى حلفوا بها فالله هو خالق العالم ، وحال فى كل جزء منه ؛ فالسماء هى كرسيه ، والأرض موطىء قدميه ، وأورشليم مدينة الملك العظيم داود . وحتى رأس الإنسان لا يملكها الإنسان ، لأنه يعجز عن أن يحوِّل شعرة سوداء إلى بيضاء أو العكس . فالذى يقسم بأى شيء فى الوجود ، هو فى الحقيقة يقسم بالله . فالله فى العمل والشارع والبيت وكل مكان . إن وجود الله الشامل ، يصل إلى كل ذرة من ذرات الكون .

دخل استاذ جامعى — فى زمن الأربعينات — إلى مدرَّج الكلية ، وتذكَّر أنه نسى شيئًا فى سيارته ، فترك طربوشه على المنضدة وذهب إلى حيث تقف السيارة ليحضر ما نسيه . ولما جاء الطلبة فى تلك الاثناء ولم يجدوه ، انصرفوا . وفى اليوم التالى قال للتلاميذ معنفًا : « أريدكم أن تعلموا شيئًا — أنه طالما طربوشى هنا فأنا هنا ، وعليكم الجلوس والانتظار بهدوء واحترام أمام الطربوش . وفى المحاضرة التالية دخل الأستاذ إلى المدرَّج ، فوجد خمسة وثلاثين طربوشًا ولم يجد طالبًا واحدًا . من هذه القصة نستطيع أن ندرك كيف أن الإنسان رغم محدوديته يحاول أن يرمز لحضوره بأشياء تتعلق به مما يمتلكها . فكم وكم يكون الله ، الذى له القدرة على الوجود فى كل شيء لأنه عمل الكل .

عندما ننظر من حولنا نرى الله فى كل شيء ونحس بحضوره . قال داود النبى « أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب .. إن صعدت إلى السموات فأنت هناك . وإن فرشت فى الهاوية فهاأنت . إن أخذت جناحى

الصبح وسكنت فى أقاصى البحر ، فهناك أيضًا تهدينى يدك وتمسكنى يمينك » (مز ١٣٩ : ٧ — ١٠) .

الدرس الرابع : التعرف على طبيعة أبناء الله

إذ يقول المسيح « ما زاد على ذلك فهو من الشرير » . وهذه الجملة يمكن أن تفسر بطريقتين : **الأولى** : هى انك عندما تقسم لتؤكد كلامك فهذا شر أو من الشرير ، لأنه يجب أن يكون كلامك نعم . نعم . ولا . لا .

والطريقة الثانية : والتى أفضلها هى إن طبيعة العالم الشرير يجعل الإنسان يحس بالحق ضعيفًا لذلك يحاول أن يساند الحق ، وذلك بأن يقسم ليثبته ، وهذا من الشرير . فالشر المسيطر على العالم مصدره إبليس . ونحن نعيش فى عالم لا مكان للحق فيه . ومسئوليتنا كأبناء لله أن نعلن الحق قويًا مدويًا دون استخدام وسائل العالم فى هذا ، وهو القسم . فخروجنا عن طبيعة أبناء الله خطأ وخطية . **إن مسئوليتنا هى إعادة العالم إلى نقائه الأصلى ، وذلك يتم باستخدامنا لغة مختلفة عن لغة العالم . فليكن كلامنا نعم . نعم . لا . لا .**

والآن فلنتقدم نحو فكرة رفض الحلف ، كما أعلنها المسيح :

« لا تحلفوا البتة » .

لقد توقفت كثيرًا أمام هذه الكلمات « لا تحلفوا البتة » ، وحاولت أن أستكشف ما المقصود بها ، خاصة وأن هنالك نوعين من القسم مصرح بهما فى الكتاب المقدس ، وهما : القسم الإلهى ، والقسم القضائى . والقسم الإلهى هو قسم الله بنفسه ، والذى يذكره زكريا فى تسبيحته : « القسم الذى حلف لإبراهيم أبينا أن يعطينا إننا بلا خوف منقذين من أيدى أعدائنا نعبده »[1] ،

(١) لو ١ : ٧٣

وأيضًا : « فإنه لما وعد إبراهيم إذا لم يكن أعظم يقسم به أقسم بنفسه »[1] . وهو نوع من القسم يمكن للإنسان أن يمارسه فى إتخاذ عهودًا على نفسه أمام الرب وأمام شعبه ، أو تقديم نذر للرب ليدخل فى عهد معه .

والنوع الآخر من القسم المصرح به هو **القسم القضائى** . وقد صرح به فى العهد القديم : « فيمين الرب تكون بينهما هل لم يمد يده إلى مُلك صاحبه فيقبل صاحبه . فلا يعوِّض »[2] « ويستحلف الكاهن المرأة ويقـول لها .... »[3] وهذا النوع من القسم الذى يمنعه العهد الجديد . فعندما استحلف رئيس الكهنة يسوع فى المحاكمة قائلاً « أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله . قال له يسوع . أنت قلت . وأيضًا أقول لكم .... »[4] . وكذلك فى الرسالة إلى العبرانيين : « فإن الناس يقسمون بالأعظم ونهاية كل مشاجرة عندهم لأجل التثبيت هى القسم »[5] . ولقد أقسم بولس فى رسالته الثانية إلى كورنثوس مرتين : الأولى فى ١ : ٢٣ « ولكنى استشهد الله على نفسى أنى إشفاقًا عليكم لم آت إلى كورنثوس » ، والثانية فى ١١ : ٣١ « الله أبو ربنا يسوع المسيح الذى هو مبارك إلى الأبد يعلم أنى لست أكذب » .

إذن لماذا رفض المسيح استخدام القسم فى معاملاتنا مع بعضنا البعض ، وفى علاقاتنا بالآخرين . أعتقد أن هناك أربعة أسباب دعت السيد المسيح أن

---

(١) عب ٦ : ١٣

(٢) خر ٢٢ : ١١

(٣) عد ٥ : ١٩

(٤) مت ٢٦ : ٦٣ و ٦٤

(٥) عب ٦ : ١٦

يمنعنا من الحلف قائلاً : « لا تحلفوا البتة » .

الاول : القسم هو عدم ثقة فى النفس وإحساس بعدم الأمان :

يقول علماء النفس إن الإنسان الذى تهتز ثقته بنفسه يفعل شيئًا من اثنين : إما أن يمتنع نهائيًا عن الكلام ، أو يتكلم كثيرًا مؤكدًا كلامه بأقسام متتالية . وعدم الثقة بالنفس تأتى من عدم الثقة بالله ؛ فثقتنا بأنفسنا تنبع أساسًا من ثقتنا فى الله .

إن الإنسان المفوّه فى مواجهة الجماهير ، والناجح فى الخطابة يستطيع أن يشد انتباه الناس ، لا لأنه يتقن فن الكلام فقط ، بل لأنه يثق فى نفسه أولاً . فالثقة بالنفس تأتى قبل إتقان فن الخطابة . عندما يتحدث المسيح عن الصلاة قائلاً : « ولا تكرروا الكلام باطلاً » ، فهو يشير هنا إلى عدم قدرة إنسان على التعبير عن ذاته ، لذلك يحفظ بعض الكلمات ويرددها . وهذا ينشأ أساسًا من عدم الثقة بالنفس ، التى تؤدى إلى عدم القدرة على التعبير عن الذات .

عندما تولد من جديد تدرك أنك مخلوق على صورة لله وشبهه ، وثقتك بنفسك وإحساسك بالأمان تستمده من الله مباشرة . وعندئذ سوف تجد نفسك غير محتاج لأن تبرر نفسك أو تؤكد كلماتك لأى شخص ، مهما كان وفى أى حال .

إن علاقتنا بالله تملؤنا ثقة بأنفسنا ، وإحساسًا بالأمان ولذلك نحن لسنا بحاجة لأن نستمد ثقتنا بأنفسنا بأقسام ، لنكسب ثقة الناس فينا .

السبب الثانى : القسم هو عدم ثقة فى الآخرين :

جاءنى أحد الطلبة فى كلية اللاهوت ليحدثنى عن أحداث غير عادية ، وقعت له أثناء تدريبه الصيفى على الخدمة . وأخذ يعبّر لى بقوة عما فعله فى تلك الفترة . وكنت استمع له باهتمام وثقة . وفجأة أقسم أن كل ما يقوله

صحيح ، فتعجبت وقلت له . إننى لم أشك لحظة فى صدق ما ذكرت ، فرد قائلاً : لقد أقسمت لك لأن أحدًا مما ذكرتُ لهم هذه الأحداث من قبل لم يصدقنى ، بل هناك من تهكّم علىّ . إن القسم ليس فقط عدم ثقة فى الذات بل أيضًا هو عدم ثقة فى الآخرين . فعندما يقسم الإنسان لا يعبرٌ فقط عن عدم ثقته فى ذاته بل فيمن يسمعه أيضًا . **إن الصلاة الطويلة والمتكررة أمام الله لا تعني فقط عدم ثقة فى ذواتنا بل عدم ثقة فى الله** ... إننا كثيرًا ما نقابل شحاذًا فى الطريق يحتاج إلى مال فيقسم أن إبنته مريضة وأشترى لها دواء ويقسم ... ويقسم . الخ ذلك لأنه لا يثق فى أن الآخر يصدقه وسيساعده . **من أهم أساسيات الحياة الجماعية ــ كشعب الله ــ أن نثق فى بعضنا البعض ، وثقتنا فى بعضنا البعض تجعلنا لا نستخدم القسم فى تأكيد ما نقول . كما أن عدم القسم يوحى بالثقة للآخرين وفيهم . فنحن نتناول الأحاديث معًا ببساطة وصدق ، فليس هناك حاجة التبرير ما نقول بقسم .**

السبب الثالث : القسم هو إحراج للآخرين ومصادرة لعقولهم :

فالقسم ليس فقط عدم ثقة بالنفس أو بالآخرين ، لكنه أيضًا نوع من إحراج الآخر والضغط عليه لكى يقتنع ويصدِّق ما نقوله ، وهذا درب من الهروب من المواجهة . إنه عدم القدرة على مناقشة أفكارنا مع الآخرين ببساطة ودون حساسية ، للوصول إلى الحقيقة عن طريق الإقناع والإقتناع .

جاءنى أحد الشباب ليناقشنى فى أمر فتاة يريد أن يتزوجها . وبعد حديث قصير قلت له إنى أرى أنه ليس من المنطق أن تتزوج هذه الفتاة لعدة أسباب ، وقبل أن أنطق بأول سبب عاجلنى بالقول : « إن الله أمرنى بأن أتزوجها فسكت وابتسمت بصعوبة ، قائلاً له : ما دام الله أمرك بأن تتزوجها ، لماذا تأتينى لأخذ رأى ... فتلعثم وتردد . لقد أغلق الشاب باب المناقشة بإدخاله الله كطرف فى الحديث ... طرف له السلطان والأمر . **والقسم يفعل نفس الشيء تمامًا . فعندما نذكر حقيقة معينة أو حدث ما تكون هذه الحقيقة أو**

هذا الحدث قابلين للمناقشة ، لأننا رأينا الحدث وذكرنا الحقيقة ، من وجهة نظرنا وحسب إقتناعنا . لكن عندما نقسم فإننا نرغم الآخرين على إيقاف المناقشة ، حتى لو كانوا غير مقتنعين .

عندما تكون إجابتك بسيطة ، **فهذا معناه أنك تحترم من تكلمه ولا تريد أن تحرجه . فأنت تقول الحقيقة وتناقشها بهدوء ، وللآخر أن يقبل أو يرفض . فالقسم هو عدم احترام لفكر الآخر ، ومصادرة له ، ومحاولة لإحراجه** . لذلك يقول يسوع : ليكن كلامكم نعم نعم لا لا .

السبب الرابع : القسم يجعلنا نعيش حياة التناقض :

يعيش المسيحى فى المجتمع كإنسان مختلف فهو مدعو لأن يكون نورًا للعالم وملحًا للأرض . وعندما نمارس الحياة المسيحية معًا فى العالم فيجب أن تكون لنا لغة مختلفة . وعندما نقسم نناقض أنفسنا . فحياة المسيحى يجب أن تتقسم بالتدقيق ، فنحن رائحة المسيح الذكية .

إختلف هنرى الثامن ملك إنجلترا مع بابا روما ، لأن الأخير رفض أن يصرّح له بالطّلاق من زوجته التى لم تنجب له إبنًا لعرش البلاد . وكان البابا قد منحه لقب « حامى الإيمان » أو « المدافع عن الإيمان » قبل إختلافهما . وعندما وقف هنرى الثامن أمام المحكمة الكنسية بتهمة زواجه باثنين ، قال للكاردينال الذى يحاكمه : أنا هنرى الثامن « حامى الإيمان » . قال له القاضى عليك أن تدافع عن نفسك ، ودع الايمان يدافع عن نفسه فأنت لا تحميه ، فكيف تكون حامى الإيمان وتفعل هذا .؟! ونحن كثيرًا ما نقع فى التناقض بين ما نقول وما نفعل . ولكى لا نعيش هذا التناقض ليكن كلامنا نعم نعم لا لا . كيف يكون كلامنا صادقًا معبرًا عن شعب يعيش لله يثق فى إلهه وفى ذاته وفى الآخرين ، ثم بعد ذلك ننقض كل هذا بالقسم . إنها حياة التناقض . فشعب الرب يعيش للرب ، بثقة وصدق وأمانة .

لذلك فعندما قال يسوع « لا تحلفوا البتة » كان يدرك تمامًا إن عدم الحلف ، دليل كاف للصحة الروحية والنفسية للمؤمن ، فهو يثق بالله ويثق فى نفسه ويثق فى الآخرين ، ويعيش حياة واضحة بلا تناقض .



الفصل العاشر

العبادة الاستعراضية

منذ أن وجد الإنسان على الأرض وهو يتطلع إلى قوة أرفع منه تتحكم فيه ، يرنو هو إليها ويخضع لها بل ويعبدها . فالعبادة جزء من تكوين الإنسان . فحتى الشعوب التى لم يعلن الله ذاته لها بصورة مباشرة ، خلق الإنسان لنفسه فيها معبودات أو آلهة لكى يتعبد لها . فالإنسان يحس دائمًا بحاجته إلى إله . فشعب الله فى القديم عرف الله من خلال إعلاناته له وتعلَّم كيف يعبده ، وفى الوقت الذى كان فيه لكل شعب من شعوب الأرض إلهه الذى يعبده . وحتى فى العصر الذى نعيشه ، والذى فيه يُعبد الله فى أغلب شعوب العالم ، هناك شعوب لها آلهة خاصة بها مثل البوذيين والكونفوشيوسيين فى آسيا ، وعبدة الأوثان فى أفريقيا ... وهكذا . فإن اختلف الناس على طبيعة الإله ، من دين لآخر ومن أمة لأخرى ، إلا أن الجميع إتفقوا على ضرورة العبادة . فالمسيحى يعبد والمسلم يعبد واليهودى يعبد ... كل بطريقته . والبوذى والوثنى والكونفوشيوس يعبد ، كل بطريقته . ومن الغريب أن نجد أن الشعوب رغم اختلافها على طبيعة الإله وشخصه ، إلا أنها اتفقت على أركان أساسية للعبادة ، كالصلاة أو الصوم والصدقة أو الزكاة ، وهى توجد فى أى دين من الأديان ، سماوى كان أم غير سماوى . لذلك عندما أراد المسيح أن يتحدث عن العبادات ، لم يتحدث عن ضرورة أو أهمية الصوم والصلاة أو الزكاة ، لأن كل إنسان يعرف أهميتها ، لكنه تحدث عن كيفيتها . فالسؤال فى فكر المسيح لم يكن لماذا ؟ ولكن كيف أصلى وأصوم وأتصدق ؟ ولقد رأى السيد المسيح أن بعض البشر قد استخدموا العبادات لا لكى يمجدوا الله من خلالها ، بل لكى يمجدوا أنفسهم . وأن بعض الناس — فى مختلف الديانات — استخدموا

العبادة ليظهروا للآخرين تدينهم فيؤثرون عليهم وفيهم ، دون إيمان حقيقى داخلى .

والمسيح هنا يعلن أن المؤمن الحقيقى لا يهتم كثيرًا أن يظهر للناس تدينه . فالفرق بين المؤمن الحقيقى والمتدين ، أن الأول يضع الله مركزًا لحياته ، أما الثانى فإنه يضع الناس فى المركز . فهل نركز فى حياتنا وتصرفاتنا على الله أم على الناس ؟! يقول المسيح إن الإيمان لا يحتاج أن تظهره للناس بلباس معين . أو مظاهر خارجية معينة . فالمفروض أن يكتشف الناس إيمانك دون مجهود منك ، فلا تُظهر للناس تدينك بلازمة معينة تراعيها فى الحديث ، أو بعلامة على الوجه أو اليد ، بل دع الآخرين يكتشفون الإيمان فيك ومن خلالك .

والمسيح هنا يتعرض لاولئك الناس الذين استخدموا ممارسة الدين للاستعراض ، لكى يظهروا للناس تدينهم . إنهم يضعون الروحانيات على مسرح استعراضى ، لكى يشاهدها الناس ويصفقون لهم ويستحسنوهم . ولقد وضع المسيح ستة مظاهر يحرص عليها الذين يستعرضون تدينهم ومن خلالها نتعرف عليهم بسهولة .

العلامة الأولى : ظاهرة التمثيل :

يقول السيد المسيح : « فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون فى المجامع وفى الأزقة لكى يُمَجَّدوا من الناس »[1] .

ويقول : « متى صليت فلا تكن كالمرائين . فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع وفى زوايا الشوارع لكى يظهروا للناس »[2] .

---

(١) مت ٦ : ٢

(٢) مت ٦ : ٥

وأيضًا : « ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين **كالمرائين** . فإنهم يغيرون وجوههم لكى يظهروا للناس صائمين »[1] .

وكلمة مرائى تعنى ممثل ، واستعراض الروحانية أو العبادة أمام الناس هو فصل تمثيلى يقوم به المتعبد . والممثل هو من يلعب دورًا لا يعيشه فى حياته الخاصة . فالممثل يقوم بدور كتبه مؤلف ، وصمم له الملابس شخص آخر ، وأخرجه ثالث . ونجاح هؤلاء كلهم يتركز فى إقناع المشاهدين أن ما يروه شيئًا حقيقياً وليس تمثيلاً . والمفروض أن الممثل يتقمَّص الشخصية التى يمثلها ويعيش معها طوال التصوير أو عرض المسرحية ، وربما بعدها بقليل . لكن بعد ذلك يكون عليه أن يخرج منها ليتقمص شخصية أخرى وهكذا . والممثل الناجح هو من يدرس أبعاد الشخصية التى سيمثلها بعمق وفهم لكى يكون مقنعًا للمشاهدين . والمرائى الذى يمثِّل شخصية المؤمن ، يدرس شخصيته كما هى مرسومة فى الكتب المقدسة ، ويحاول أن يجسدها بإتقان أمام المشاهدين ؛ فيلبس ملابسهم ويتحدث بأسلوبهم ... وهكذا .

يقول المسيح إن المؤمن قد يعتريه بعض الضعف ، وقد يسقط فى خطية أو خطأ ما . لكن العيب كل العيب ، أن تمثِّل أنك شخص كامل متعبد لله ، وأنت أبعد ما تكون عن ذلك أن تستخدم الدين للإشباع النفسى ولأغراض شخصية ، فهذا أبعد ما يكون عن الدين الحقيقى .

العلامة الثانية : ظاهرة طلب الاستحسان من البشر :

يقول المسيح : « فمتى صنعت صدقة فلا تصوِّت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون **لكى يُمَجدوا من الناس** » .

---

(١) مت ٦ : ١٦

وأيضًا « ومتى صليت فلا تكن كالمرائين . فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع وفى زوايا الشوارع **لكى يظهروا للناس** » .

ويقول « ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين . فإنهم يغيّرون وجوههم **لكى يظهروا للناس صائمين** » .

إن سؤال الممثل المحترف هو : ما هوتقييم الناس لى ؟! وسؤال المؤمن الحقيقى : ماذا يقول الله عنى ؟! تركيز الأول على الناس ، وتركيز الثانى على الله . مقياس نجاح الأول استحسان البشر ، ومقياس نجاح الثانى استحسان الله .

إن مقياس المؤمن الحقيقى هو : ما الذى أقوم بعمله عندما أكون بمفردى ؟! ما هى نوعية الأخلاقيات التى تتحكم فىّ ؟! .. والمجتمع الشرقى يعطى أهمية ضخمة جدًا لما يقوله الناس . وكمصريين نهتم بحديث الناس لدرجة أن وجود ضيف ما فى بيت يعتبر ثقلاً على الأسرة ، لأنها تمثّل أمامه بمظاهر إسراف معينة وتقاليد وأعراف ، تجعل الأسرة تبدو على غير حقيقتها ، حتى أن الأطفال يكرهون الغرباء ، لأنه يجب أن يتصرفوا أمامهم لا كأطفال بل كراشدين ... كم تحملنا لكى نظهر للناس بصورة مختلفة عن حقيقتنا ؟! وكم كلفنا أسرنا حتى لا يتقوّل الناس علينا بأشياء لا نريدها .

والمسيح هنا يرفض أن نظهر للناس التدين بقصد طلب استحسانهم فهذا كذب وخداع واضحين ...

إن الذى لا تقوم به فى حياتك الخاصة ، لا يجب أن تعمله أمام العامة . إن كنت لا تفعل شيئًا بقلبك ، فلا تفعله بحركاتك . وإذا لم يكن الأمر حقيقيًا وواقعيًا بالنسبة لك ، فلا تقم به أصلاً .

ولقد سقطت أسرة فى الكنيسة الأولى ، فى طلب الاستحسان من

البشر[1] . رأت أن معظم الناس باعوا حقولهم وبيوتهم وأتوا بأثمان المبيعات ووضعوها عند أرجل الرسل ، لكى يوزع منها على المحتاجين . وعندما أرادوا ألا يتخلفوا عن الركب ، باع الرجل ــ اسمه حنانيا ــ ملكه ، واختلس من الثمن ــ وامرأته لها خبر ذلك ــ وأتى بجزء ووضعه عند أرجل الرسل .. لكن هذه الأسرة ، إن كانت استطاعت أن تخدع الناس ، إلا أنها لم تستطع أن تخدع الله . فقال له بطرس : « ياحنانيا لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس وتختلس من ثمن الحقل . أليس وهو باق كان يبقى لك . ولما بيع ألم يكن فى سلطانك . فما بالك وضعت فى قلبك هذا الأمر . أنت لم تكذب على الناس بل على الله » .

وهكذا نرى أن كل من يضع الناس أساسًا لتحركاته ، يسقط فى مأساة وضع تدينه على مسرح تمثيلى استعراضى .

العلامة الثالثة : ظاهرة تكرار الكلام :

يقول المسيح : « **وحينما تصلوّن لا تكرروا الكلام باطلاً ، كالأمم** ، فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم »[2] .

والمقصود بتكرار الكلام هنا هو تكرار صلاة من عدة جمل محفوظة عن ظهر قلب عدة مرات ، بلا إحساس حقيقى بها . ولقد سقطت جميع الديانات فى تكرار الصلوات المحفوظة أمام الله . وهى عادة وثنية قديمة حيث كان الكهنة يضعون الصلوات أو يؤلفونها ، ثم تكرر عند تقديم الذبائح للآلهة ، وتكرار الصلاة يعنى أن الله لا يمل من تكرار صلاة واحدة قدامه . وبهذا نهينه دون قصد منا ، إذ نعتبره شخصًا جامدًا بلا أحاسيس ؛ يحتاج لشكل معين وكلمات

---

(١) أع ٥ : ١ ــ ١١.

(٢) مت ٦ : ٧

معينة من الصلوات فإذا لم ترفع كما هى رفُضنا من الله . ولكن الإله الحساس الذى نعبده ، يتذوق ويحب ويتعاطف ، لذلك فتكرار الكلمات قدامه بلا معنى إهانة له . ثم إن تكرار الصلاة إهانة للإنسان أيضًا ، لأنه يعنى عدم نضوج الإنسان أو قدرته على التعبير عن ذاته . فهو يبدو كطفل صغير ، لا يعرف كيف يعبِّر عن نفسه ، فيضع الآخرون الكلمات على شفتيه ليكررها دون وعى أو دون فهم . وتكرار الكلام ، يذكرنا بالممثل الذى يلعب نفس الدور كل يوم فى نفس المسرحية . فهو يحفظ حوارًا يكرره بنفس الأسلوب والحركات والطريقة فى كل يوم .

ولقد أصبح تكرار الكلام فى العبادة اليوم ، من الظواهر السلبية الواضحة على كل المستويات . فقد أصبحنا نعبد الله على طريقة الماكينة البطيئة ، التى تكرر نفس الحركات ، بنفس الصوت المتحشرج طوال اليوم ، بأسلوب ممل وغير متجدد . ومما يؤسف له أن الكنائس ــ بصفة عامة ــ تتجه الآن نحو تكرار صلوات معينة ، بطريقة آلية .

هل يمكن أن نتخيل الله وهو يحاول أن يسمع ما يريد العابدون قوله بكل شغف ، وإذ به يستمع إلى نفس الكلمات تكرر مئات المرات بلا معنى . ترى ما هو رد الفعل لديه جل شأنه ؟!

إن الذين يتخذون العبادة مسرحًا أو فيلمًا ، يكررون الكلام باطلاً .

العلامة الرابعة : ظاهرة كثرة الكلام

يقول السيد المسيح : « فإنهم يظنون أنه **بكثرة كلامهم** يستجاب لهم »[1] . وكثرة الكلام تختلف عن تكرار الكلام . فتكرار الكلام هو أن تحفظ جملة واحدة أو عدة جمل ، وتكررها كما هى . أما كثرة الكلام فهى أن يكون هنالك معنى واحد أو فكرة واحدة أو حق واحد ، وتتحدث عنه

---

(١) مت ٦ : ٧

وهذا ما يطلق عليه « الرغى » فى لغتنا الدارجة . ويمكن أن نراه فيمن يتكلمون كثيرًا بلا مضمون واضح معين أو عميق . فالحق الإلهى حق بذاته وليس بكثرة الكلام عنه ، فالحق حق بطبيعته لأنه الحق . وعندما نكرر معنى واحدًا بكلام كثير غير مركز ، سواء فى الترنيم أو الصلاة أو خدمة الوعظ أو العبادة بوجه عام ، فهذا ما يدعوه يسوع « كثرة الكلام » .

توجد حقيقة تقول : إن هنالك علاقة بين الحق الذى نعرفه فى عقولنا ، وعدد الكلمات التى يمكن أن نستخدمها للتعبير عنه . والإنسان الناضج أو الفاهم ، هو الذى يستخدم أقل عدد من الكلمات ، ليوصِّل ما فى فكره للناس .

قيل لجورج واشنطن ، إن أردت أن تتحدث إلى الناس لمدة خمس دقائق ، كم تحتاج من الوقت لإعداد خطبتك ، قال ست عشرة ساعة . قالوا ولو أعطيناك خمس عشرة دقيقة ، قال أحتاج لثمان ساعات . قالوا ولو أعطيناك نصف الساعة ، قال أستعد فى ست ساعات . قالوا ولو أعطيناك ساعتين ، قال يمكن أن أتحدث الآن .

عندما نتحدث إلى الناس ، علينا أن نقول ما نعنى ونعنى ما نقول ، حرصًا على وقتنا ووقت الآخرين ، واحترامًا لعقولنا وعقول الآخرين ... فكم وكم عندما نتحدث إلى الله .

دخل شخص إلى كنيسة لأول مرة ، ووضع فى ذهنه أن يدفع عشرون جنيها فى صندوق العطايا . وبعد نصف الساعة من العبادة قرر أن يخفض المبلغ إلى عشرة جنيهات . وبعد نصف الساعة التالية خفَّضها إلى خمسة جنيهات ، وبعدها قرر ألا يدفع نهائيًا . وأخيرًا فكَّر ، أنه عند مرور صندوق العطاء يجب أن يأخذ منه ، تعويضًا عن الوقت الذى أضاعه . لقد أحس هذا الإنسان أن العبادة كلها تركزت على فكرة واحدة تكررت عشرات المرات ، وكان يكفى لهذه الفكرة خمس دقائق فقط .

الظاهرة الخامسة : ظاهرة دينونة الآخرين

يقول السيد المسيح عن أولئك الذين يلعبون مسرحية العبادة على المسرح الاستعراضى : « فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضًا أبوكم السماوى . وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضًا زلاتكم »[١] .

والمسيح هنا لا يقول أن غفران الله مؤسس على غفراننا نحن لبعضنا البعض ، لكنه يقول أن شجرة التفاح تثمر تفاحًا وشجرة البرتقال تنتج برتقالاً ، فالغفران ينشىء غفرانًا فى دائرة متكاملة . فالله يغفر لنا ونحن نغفر للناس ويعود الله فيغفر لنا ... وهكذا . لكن المشكلة الحقيقية التى يواجهها يسوع ، هى أولئك الذين يستعرضون عقائدهم وروحانياتهم وسط الناس . فيحكمون على البشر ويدينوهم لأنهم ليسوا بمتدينين مثلهم ، ولا يتصرفون على طريقتهم . فهم يعمقّون الإحساس بالذنب لدى الناس مع أن كل ذنب هؤلاء — أنهم لا يشبهونهم فى طريقة لباسهم أو أسلوب حديثهم . ويحاول هؤلاء الناس أن يفرضوا طريقتهم فى الحياة وأسلوبهم فى العبادة على الآخرين ، فيحتقرون من لا يشبهونهم أو يتشبهون بهم ، ويحكمون عليهم بالكفر والخروج عن الدين ، ويرفضون أن يغفروا زلات الناس مهما كانت بسيطة ، لأنهم يدّعون التدقيق . فهم يحمّلون الناس أحمالاً عسرة ولا يحاولون أن يساعدوهم على حملها . إن أولئك الممثلين — المتدينين — يدعون الناس إلى الفضيلة بصورة شاذة ، فيهاجمون من لا يلبس ثيابهم أو يردد كلماتهم . وهؤلاء يقول عنهم المسيح ، أن « كل أعمالهم يعملونها لكى تنظرهم الناس . فيعرّضون عصائبهم ويعظّمون أهداب ثيابهم »[٢] . ويقول لهم : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون

---

(١) مت ٦ : ١٤ و ١٥

(٢) مت ٢٣ : ٥

لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحدًا . ومتى حصل تصنعونه ابنًا لجهنم أكثر منكم مضاعفًا »[1] . ويقول : « أيها القادة العميان الذين يصفُّون عن البعوضة ويبلعون الجمل ... تنقون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوآن اختطافًا ودعارة »[2] .

إن هؤلاء الناس الذين لا يقبلون سوى ما فى ذهنهم ، ثم يرفضون ويحاربون ويدينون كل ما عداهم ، إنما يزيفون الروحانية ويمثلونها بلا معنى حقيقى فى حياتهم .

الظاهرة السادسة : ظاهرة العبوس والتجهم

يقول المسيح : « ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين . فإنهم يغيِّرون وجوههم لكى يظهروا للناس صائمين . الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم »[3] .

إن المتدين الحقيقى ، ليس من يعبد أو يعيش بوجه متجهم وعابس . إن التجهم محاولة لإخفاء شىء من الخطأ داخل الإنسان وفى تكوينه . فالإنسان غير الواثق بذاته أو بما يقوم به أو يعمله ، يضع قناعًا من التجهم خشية أن يكتشف الناس ما يدور فى داخله من ضعف وقلق وتوتر . ولذلك يرسم على ملامحه الجدية والوقار الزائد ، حتى لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه . واليوم نجد الكثيرين الذين يربطون بين التجهم والروحانية . فإهمال الملبس والمأكل وإطلاق اللحى وهجر العالم بما فيه كل هذه علامات يدَّعونها للتعبير عن الروحانية أو العبادة الحقة ، والعبادة الحقيقية أبعد ما تكون عن ذلك . فالإنسان

---

(١) مت ٢٣ : ١٥

(٢) مت ٢٣ : ٢٤ و ٢٥

(٣) مت ٦ : ١٦

الذى يعيش لله ، يحيا سعيدًا مبتهجًا لأن الله معه وفيه . والدراسة النفسية لشخصية يسوع تعلن أنه كان من الأشخاص المنبسطين والمتفتحين . فهو أول معلم يهودى يعطى المرأة مكانتها وقيمتها . فلم يخجل أن تصرف النسوة على بعثاته التبشيرية ، و لم يتردد أن يجعل النساء ضمن تلاميذه: « مريم التى جلست عند قدمى يسوع وكانت تسمع كلامه »[1] .

وعندما أعلن يسوع أن الزواج من إمرأة واحدة ، كان هذا أكبر احترام للمرأة وإعادة لإنسانيتها . فهى إنسان وليس شىء يستخدم ويستهلك ويستبدل ويتكرر كما ذكرنا آنفًا .

ولقد كان المسيح أول من يجلس مع العشارين والخطاة ، دون أن يشبعهم نصائح ودينونة وإحساس بالذنب . وهو أول معلم يجرى الأطفال نحوه ، لأنه كان دائم الابتسام والاتضاع والحب . إن العبوس والتجهم هو مجرد صياغة مأساوية للروحانية على المسرح الإستعراضى ، لا تمت إلى الروحانية الأصيلة والعبادة الحقيقية بصلة .

إن العلاقة مع الله علاقة داخلية نعيشها ونرسخها ونؤمن بها ، وتستعلن للناس بلا قصد أو تمثيل ، ولكن بتلقائية وبصورة طبيعية . والآب الذى يرى فى الخفاء صدقنا فى العلاقة وأمانتنا ، سوف يجازينا علانية بحب الناس وثقتهم واقترابهم منا . وعلاقتنا بالناس على هذا النحو ، تأتى لنتيجة لعلاقة صحيحة مع الله ، وليس ثمرة جهود بذلناها معهم لنحصل على استحسانهم ، إنها المكافأة الالهية التى يقدمها الله لنا بسبب أمانتنا مع أنفسنا ومع الله ومع الآخرين ، لذلك فلنا أن نستمتع بهذه المكافأة لأبعد مدى .

---

١ ــ لو ١٠ : ٣٩

ـــ الخدعة الكبرى :

إن أولئك البشر الذين يمثلون التدين يظنون أنهم هم فقط الحاصلون على المعرفة الحقيقية ، وهم وحدهم الذين يعرفون الله والله يعرفهم ، وهم فقط الذين سيحصلون على المكافأة والحياة مع الله لأنهم مدققون ، متجهمون ، يرفضون أى مناقشة لأرائهم وتوجهاتهم ... هؤلاء يوحون لأنفسهمّ بأنهم على الطريق الصحيح ، وأن الله يرفض سواهم . لكن السؤال هو : هل هم مخدعوون ؟! وإن كانوا مخدوعين فمن الذى خدعهم ؟! ..الحقيقة التى لا يجب أن تغيب عن بالنا ، هى أنهم جماعة من المخلصين . لكن السؤال هو : هل إخلاصهم هذا ، مبنى على خطأ أو خداع ؟ هذا ما سنراه فى الحوار الذى دار بين السيد المسيح وواحد منهم جاء ليناقشه . فقد كان يسوع يجتاز فى مدن وقرى يعلم . وفى أحد المرات اجتمع مع جماعة من اليهود الأتقياء ، المتعصبين الذين يرفضون من يخالفهم الفكر والعقيدة . فسأله واحد : « اقليل هم الذين يخلصون »[1] ؟ وهذا السؤال نموذج لسؤال أى متطرف . فهو أولاً يوحى بأن السائل لا يحتاج إلى تعليم . فهو يعرف كل التعليم ، وثانيًا هو غير محتاج أن يتأكد من أمر خلاصه ، فهو يعرف الطريق جيدًا إلى الله . وهو ثالثًا من ظاهر السؤال يتضح أنه يريد أن يعرف عدد الذين سيخلصون ومن هم ، وهو هنا أيضًا لا يريد أن يعرف حقيقة ، بل يريد أن يسمع من يسوع الإجابة التالية : إن الذين سيخلصون عددهم قليل جدًا ، وهم اولئك الذين يشبهون هذا الشخص فى تعصبهم لجنسهم ودينهم وطائفتهم . إنهم أولئك المتشددون الرافضون لأى تجديد . أولئك الذين تسلموا الايمان من الآباء ويعيشون فقط ليحفظوا التراث . لكن المسيح لم يجب إجابة مباشرة وقدّم درسًا له وللمستمعين مبتدئًا بالقول : « اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق » . تُرى

---

(١) لو ١٣ : ٢٣

ما هو الباب الضيق للمؤمن المتدين الذى يجب أن يدخل منه . فيسوع هنا يتحدث إلى جماعة متدينة . فلو كان يتحدث إلى خطاة لقلنا إن الباب الضيق هو باب الحق ، الذى تحدث عنه المسيح قبلاً فى إنجيل متى قائلا « ادخلوا من الباب الضيق . لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذى يؤدِّى إلى الهلاك . وكثيرون هم الذين يدخلون منه . ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدِّى إلى الحياة . وقليلون هم الذين يجدونه »[1] والمقصود هو قبول عمل المسيح وخلاصه وهو أمر صعب القبول ، لذلك فقليلون هم الذين سيجدونه . أما هنا فهو يتحدث عن باب وجده الكثيرون وطلبوا أن يدخلوه لكنهم رُفضوا لأسباب سنتعرض لها فيما بعد . فالباب الضيق هنا يعنى شيئًا آخر : إن يسوع يقول للمؤمن المتشدد أو المتطرف أنك يومًا ما ستقف أمام الله ، وعندما تقف أمام الله ، يجب أن تكون قد تخلَّصت من عدة أشياء تعيشها اليوم كإنسان متدين والتدريب للتخلص من هذه الأشياء هو المقصود بالباب الضيق للإنسان الذى لديه المعرفة ، وأول شىء يجب أن تتدرب على تركه هو **ضيق الأفق أو التعصب .**

وضيق الأفق هو أن يبنى إنسان ما أفكارًا وأراءًا معينة ، يظن أن كل من يخالفها يستحق الفناء ، فى الوقت الذى فيه لا يدرك الغنى غير النهائى فى الله وفى ذاته وفى الآخرين .

فضيِّق الأفق هو الإنسان الذى لا يُدرِك ، تعاملات الله المختلفة للبشر ، كل فى موقعه وفى بيئته وفى حضارته ، ويجد الله داخل فكره هو فقط ، دون محاولة منه لإدراك اتساع الله غير المتناهى الذى يشمل كل الكون . وفى نفس الوقت لا يدرك الإمكانات الفكرية والمواهب التى يمكن أن يهبها الله له لو تخلى عن ضيق الأفق من نحو ذاته . إذ يعتقد أن كل ما يجب أن يقوم به هو

---

(١) مت ٧ : ١٣ ، ١٤

ترديد لما قاله الأقدمون ، دون محاولة منه للاجتهاد وتطوير المعانى فى عالم اليوم ، فيظل يُحِس بالعجز والقصور وعدم القدرة على التفاعل مع المجتمع . وكل ذلك بسبب ضيق الأفق من نحو كيانه وذاته . ثم تجده يقسِّم الناس تقسيمًا مجحفًا من حيث الدين أو الجنس . فهو يعيش ضيِّق الأفق بالنسبة للآخرين ، ويقضى على إمكانية ضخمة لغنى وإثراء ذاته وفكره بانفتاحه على الآخرين . وباعتبار الآخرين مارقين هالكين يقتل كل محاولة لتطوير فكره وحياته ، ويجلس يحسب ويسأل ويستقصى : « أقليل هم الذين يخلصون » ؟ .

فمن السهل على المتدين أن يكتفى بما حصل عليه من معلومات عن الله وعلى أساسها يدين الآخرين ، ويجلس مستريحًا بـ[illegible] . لكن إن أراد أن يجتهد ليدخل من الباب الضيق عليه أن يتخلص من [illegible] . يقبل الآخرين ، ويضع أفكاره دائمًا موضع الاختبار والمناقشة ، ليثبت صحتها أو يعدلها . وعليه أن يستوعب قول [illegible] : « يأتون من المشارق ومن المغارب ومن الشمال والجنوب ويتكئون فى ملكوت الله »[1] .

والمقصود بالباب الضيق للمتدينين ليس فقط إتساع الأفق ولكن أيضًا **إمتحان إخلاصهم وتحمسهم دائمًا** . ويقول المسيح فى هذا : « اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق . فإنى أقول لكم **إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون** »[2] فكثيرون من الذين وجدوا الباب سيطلبون ـــ بإخلاص ـــ الدخول ، لكنهم لن يدخلوا ولن يسمح لهم الرب بالدخول . والمسيح يقدم هنا فكرًا فى منتهى الخطورة والعمق . فهو يقول إن مجرد الإخلاص فى الطلب غير كافٍ . فهناك أناس يظنون أنهم هم فقط الذين يعرفون الله ، وبحماسهم

---

(١) لو ١٣ : ٢٩

(٢) لو ١٣ : ٢٤

لله يقتلون الآخرين ، وهم مخلصون فى هذا — فهل يتقبلهم الله ؟ أناس لهم غيرة جسدية نفسانية على الله والدين وبيوت العبادة . لكن فى تحمسهم وإخلاصهم واندفاعهم يجرحون مشاعر الآخرين ، ويدوسون على أحاسيس البشر ، فيتهمون هذا بالكفر وذاك بالذندقة وثالث بالانحراف . ويضعون قوائم لمن سيدخل النار أو السماء ، فهل الله سيقبل هؤلاء البشر لأنهم مخلصون ؟! إن المسيح يقول : إن إخلاص هذه النوعية من البشر لن تشفع لهم عند الله : « إن كثيرين سيطلبون — بإخلاص وحماس — أن يدخلوا ولا يقدرون » فى أثناء حرب أكتوبر طلب قائد كتيبة من جنديين أن يذهبا ليحرسا كوبريًا إستراتيجيًا على القناة . لكن الجنديين لم يدرسا الخريطة المعطاة لهما بعناية ، فأخطآ الطريق ووجدا أمامهم كوبريًا فظنوه هو المقصود . ووضعا أسلحتهما عليه ووقفا يحرسانه ، وقد كان هذا الكوبرى يبعد سبعة أميال عن الكوبرى المقصود . وانقطع عنهما الطعام والشراب واعتُبرا من المفقودين أو الهاربين . وعندما عُثر عليهما وجدوهما يقفان على أهبة الاستعداد للدفاع عن الكوبرى ، وبإخلاص منقطع النظير ، ورغم أنهما كادا أن يموتان جوعًا ، ورغم إخلاصهما قدما لمحاكمة عسكرية ، لأنهما لم يحرسا الكوبرى الاستراتيجى . وحكم عليهما بالسجن ، ولم يشفع لهما إخلاصهما .

وأعتقد أن كل مؤمن متطرف يحرس كوبريًا بطريق الخطأ ، سيكتشف فى النهاية أنه كان مخدوعًا ، وأنه أضاع حياته بلا فهم حقيقى لمعنى الدين والحياة مع الله ، ولن يشفع له إخلاصه فى يوم الدين : « لا أعرفكم من أين أنتم . تباعدوا عنى ياجميع فاعلى الظلم . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان متى رأيتم ابراهيم وإسحق ويعقوب وجميع الأنبياء فى ملكوت الله وأنتم مطروحون خارجًا »[1] ولذلك يقول المسيح إن كثيرين مخلصون فى طلبهم مخطئون فى

---

(١) لو ١٣ : ٢٧ و ٢٨

توجهاتهم ، وعلى المؤمن ضيِّق الأفق أن يدخل من الباب الضيق فيتخلص من هذا الإخلاص الخادع ، بتجديد فكره وإحترام إنسانية وفكر الآخرين .

والأمر الآخر الذى يجب على المؤمن المتشدد أن يتركه هو السلبية . هل يتصوّر أولئك المتشددون ، المفاجأة التى تنتظرهم فى اليوم الأخير . فقد كانوا يظنون أنهم أول من يدخل وأول من يُرحَّب بهم ، وإذا بهم يفاجئون برفضهم النهائى من الله . ويصوِّر المسيح الله برب بيت ، وقد وقف جميع المؤمنين خارجه يطلبون الدخول ، فدخل المؤمن المتسامح ، متسع الأفق ، المخلص حقيقة لإيمانه ، المحب للآخرين مهما اختلفوا عنه . وبعد دخول هؤلاء يبقى اولئك المتدينون ، الذين إرتكبوا جرائم باسم الله ودفاعًا عن الدين حسب تصورهم ، وإذا برب البيت يقوم ويغلق الباب وهم بالخارج ، فيستغربون ويتعجبون ، ويبدأون فى القرع على الباب . فيقول المسيح موجهًا الكلام إليهم : « تقفون خارجًا وتقرعون الباب قائلين يارب يارب افتح لنا يجيب ويقول لا أعرفكم من أين أنتم . حينئذ تبتدئون تقولون **أكلنا قدامك وشربنا وعلَّمت فى شوارعنا ، فيقول أقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم . تباعدوا عنى ياجميع فاعلى الظلم** »[1] .

وهنا صورة للسلبية المطلقة : أناس أكلوا وشربوا قدام الله ، أى إستفادوا منه وسمعوا تعليمه ، لكنهم لم يقوموا بأى شيء إيجابى . كل ما فعلوه يدرج فى قائمة السلبيات . لقد استخدموا قربهم منه ومعرفته لتعاليمه فى الحكم على الناس ودينونتهم . إستغلوا سلطاتهم فى أمور سلبية بحتة ، من رفض للمجتمع ولفكر المجتمع ، للموسيقى والفنون والآداب . لم يتفاعلوا مع الناس ، لم يقدِّموا الله الذى يعرفونه بشكل إيجابى وجذاب للناس . قدَّموا إلهًا متجهمًا يمسك سيفه ويجرى خلف الإنسان ، ويجلس ليحسب أخطاء البشر . ملأوا

---

(١) لو ١٣ : ٢٥ ــ ٢٧

الناس رعبًا من الله ومن الدين . لم يستطيعوا ـــ فى اليوم الأخير ـــ أن يقولوا ما فعلوه ، لأنهم ، اكتشفوا أخطاءهم ، واكتشفوا أن كل ما ظنوه إيجابيات كان سلسلة من السلبيات ، إرتكبوها فى حق الله وحق أنفسهم وحق الآخرين . فلم يكن أمامهم من دفاع سوى القول أنهم يعرفون تعليمه وأنهم كانوا قريبين منه فى الأرض : « أكلوا وشربوا قدامه » ، بمعنى أدوا كل الفرائض المطلوبة منهم من صلاة وصوم وصدقة ، ومعمودية وعشاء ربانى .. لقد فعلوا كل هذا ، بدون فكر إيجابى ، وقدرة على الخدمة والعطاء والتفاعل مع المجتمع ، فصارت سببًا لدينونتهم لا لخلاصهم . إن المسيحية ليست مجرد عبادات وفرائض نقوم بها . إنها أكبر من ذلك بكثير . إنها علاقة إيجابية فعّالة مع الله ومع الآخرين ولأجلهم . ذهبت الأم تريز التى حصلت أخيرًا على جائزة نوبل للسلام ـــ إلى الهند لكى ترعى مرضى الجذام وتلمسهم بيديها حيث يرفض البشر أن يلمسوهم . وكانت تعمل معها سيدة هندية من أصل هندوسى قبلت المسيح وكانت تلمس المرضى معها وتمرضهم ، لكنها رفضت أن تتعمد بسبب تقاليدها العرقية والقبلية . وفى إحدى رحلات الأم تريزا إلى روما أخذت هذه السيدة معها لمقابلة البابا يوحنا بولس فأعجب البابا والكاردينالات بها جدًا ، وسألها أحد الكاردينالات قائلاً هل استمتعت بسر المعمودية ؟! فقالت : لا . قال لها إذاً كيف ستدخلين إلى ملكوت الله ؟ قالت بوجه حزين وعيون دامعة وقد بسطت كفيها ؛ عندما أقابل يسوع سوف أريه يدىّ . فخجل وقال لها لن أطلب منك أن تعتمدى . والسؤال الذى يواجهنا اليوم ، ما الذى سنقوله لله ، هل سنقول له أكلنا وشربنا قدامك وعلَّمت فى شوارعنا ، أم أن هنالك شىء إيجابى قمنا به نقدمه له .

وهكذا نرى أن أولئك الذين يضعون عباداتهم على المسرح الاستعراضى ، ويتشددون ويتطرفون ضد من يخالفهم الفكر إنما يعيشون فى وهم كبير سوف يستيقظون منه وإذا بهم مرفوضون من الله لأنهم لم يعرفوا طبيعته ولم يفهموا تعاليمه ، ولم يقدّروا عمق المعانى التى يقدّمها لهم فى كتبه

المقدسة . إلا أن أولئك مدعوون لإصلاح أفكارهم وتعديل طرقهم والمصالحة مع الله ، إذا عملوا على توسيع أفقهم من نحو الله وذواتهم والآخرين ... وإذا امتحنوا إخلاصهم ، فلا يعيشون الإخلاص الخادع ... وإذا تخلوا عن سلبيتهم ، وبدأوا حياة إيجابية عميقة مع الله ومع المختلفين عنهم .



الفصل الحادى عشر

كيف تكتشف الحق ؟!

قضية الحق واحدة من أخطر القضايا المختلف عليها فى عصرنا الحالى . والمشكلة ليست فقط فى مدى معرفتنا عن الحق ، ولكنها بالأكثر فى تقييمنا وإدراكنا لأهمية الحق فى ذاته ومدى ضرورته . فمثلاً عندما تثار قضية التعليم ، فلا يكون السؤال المطروح ما هو التعليم ؟ فالإجابة واضحة — لكن السؤال يكون : هل قضية التعليم ، قضية سياسية أم إجتماعية أم ثقافية ... الخ . أى ما هو إدراكنا للتعليم كقضية مطروحة ، وصلتها بالقضايا الأخرى فى النسيج المتكامل لنمو المجتمع ... إذاً فسؤالنا ليس تكرارًا لسؤال بيلاطس : « ما هو الحق »[1] ، لكن سؤالنا هو : ما هو الحيز الذى تأخذه قضية الحق فى الوعى الإنسانى اليوم ؟ وما مدى أهميتها ؟ وهل هناك إنسان يملك الحق بصورة كاملة ؟ وهل الحق مطلق ونهائى أم نسبى ، يختلف من شخص لآخر ، ومن زمن لآخر ومن مكان لآخر ؟!

إن المشكلة التى نعيشها اليوم هى كثرة الحديث عن الحق ، وتكرار هذه الكلمة فى الشارع وفى وسائل الإعلام وعلى أعمدة الصحف . لقد أصبح كل إنسان يظن أنه يملك الحق دون الناس جميعًا . وظهر بيننا من يحكم على الآخرين بالبطل والانحراف عن الحق طالما أنهم لا يعتقدون ما يعتقده ، وهذه هى مأساة إنسان اليوم .

ولذلك فالحق كحق أو قضية ، يملك حيزًا ضخمًا من وعى الإنسان

---

(١) يو ١٨ : ٣٨

المعاصر . وكل إنسان يحاول أن يصل للحق بطريقته ، وأن يعَرِفه ويعّرفه . لكن ماذا قال السيد المسيح عن الحق ؟ وهل يصلح ما قاله منذ ألفى عام ، لإنسان هذا الجيل ؟! لقد تحدَّث المسيح عن الحق قائلاً **أن الحق مطلق فى ذاته وليس نسبى** . فقد قال : « ادخلوا من الباب الضيق . لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك . وكثيرون هم الذين يدخلون منه . ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدِّى إلى الحياة . وقليلون هم الذين يجدونه »[1] . وقال أيضًا : « احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ، لكنهم من داخل ذئاب خاطفة »[2] .

والوصف الذى يقدمه المسيح للحق: « باب ضيق » تجده أقلية من البشر . وهذا يعنى أن للحق ملامح محددة . ليس واسعًا بلا حدود أو شكل معين .. بلا لون أو طعم أو رائحة ، بل يستطيع الإنسان أن يراه ويعرفه ويحدده ويختاره طريقاً لحياته . إن من يظن أن الحق يمكن أن يوجد فى أى تعليم وبأى صورة أو شكل ، يخدع نفسه والآخرين . إن مشكلة المؤمنين اليوم أنهم خلطوا بين الحق والمحبة ، وبين الحق والسلام . وصار الناس يتنازلون عن الحق بدعوى الحب والسلام . وهذا خلط معيب ، لأن الحق هو مصدر الحب والسلام وأساسهما وليس العكس . فإن تمسك الناس بالنتيجة وتنازلوا عن السبب أو المصدر ضاع الاثنان معاً . إن الله يعلن وجوده ، ويعلن خطأ الإنسان ، ويعلن أنه لا غفران للإنسان إلا عن طريق الحق أو العدل مع الحب ، فالله عادل ومحب فإن قلنا إن الله يحب ويغفر ، ثم وقفنا عن هذا الحد لنسبنا لله قصوراً فى شخصه ، هو نقص العدل . وإن قلنا إن الله قادر على كل شيء ولا يحتاج إلى أن نتحدث عن عدالته ، لأصبح إلها قاصراً ، لا يستحق صفة إله . ولذلك

---

١) مت ٧ : ١٣ و ١٤

٢) مت ٧ : ١٥

فالحق هو أن الله عادل ومحب . وفى عدله حكم على الإنسان بالموت لأنه أخطأ ضد الله . ولأن الله أبدى غير محدود ، فتكون خطيئة الإنسان ضد الله ، أبدية غير محدودة أيضاً . لذلك كان من المستحيل أن تُغْفَر بواسطة فرائض وعطايا وأعمال حسنة محدودة بمحدودية الإنسان الذى يقوم بها . إذن فلابد أن يكون هنالك تدبيراً آخر يوفى العدل الإلهى ويعلن الحب الإلهى .

لقد حل اليهود هذه المعضلة بفكر الذبائح الذى أعلنه لهم الله فكانت الذبيحة توفى العدل الإلهى ، والإنسان يعلن توبته وعودته ، كان الله يقبل الإنسان فى محبته وغفرانه . فالإنسان يرجع ، والله يغفر ، والذبيحة توفى العدالة الإلهية . ولم تكن هذه الذبائح المحدودة إلا رمزاً لغير المحدود الذى قدَّم نفسه ليوفى العدالة الإلهية ؛ شخص المسيح ، الذى جاء — بلا خطية — مولوداً من عذراء ، وقدَّم نفسه عن الخطاة فأوفى العدل الإلهى . وفيه يتقدم الإنسان إلى الله ، فيُقبل بكل الحب الذى يفيض به قلب الله .

والمشكلة ليست فى معقولية هذا أم عدم معقوليته . المشكلة فى أنه إذا لم يكن هذا هو الحق ، حيث اجتمعت العدالة الإلهية مع الحب الإلهى ، فأين هو الحق ؟! فأى حق آخر سيكون على حساب أحد الجانبين : إما ينقصه العدل أو تنقصه المحبة . والعقل الإنسانى لا يقبل إلها تنقصه إحدى الصفتين . وهذا الحق يعبرٌ عنه بمبادىء وأخلاقيات ، هى مبادىء الحب والغفران ومبادىء العدالة ، التى يجب أن تسود فى مجتمع المؤمنين .

إذن هنالك حق واضح مطلق لا يتوقف على شخص أو زمان أو مكان . لكن قبل أن ننتقل إلى فكر آخر ، هناك شىء يجب توضيحه ، **هو الفرق بين الخطأ (ماهو ضد الحق) ، والمختلف عليه ما هو مع الحق لكنه يختلف معه فى الشكل وليس المضمون** . فليس كل ما هو مختلف يعتبر خطأ . وما يريدنا يسوع أن نتعلمه هو أن نفرِّق بين ما هو مختلف وما هو خطأ . فى إنجيل مرقس ، نقرأ : « فأجابه يوحنا قائلاً يامعلم رأينا واحدًا يخرج شياطين باسمك

وهو ليس يتبعنا ، فمنعناه لأنه ليس يتبعنا . فقال يسوع لا تمنعوه . لأنه ليس أحد يصنع قوة باسمى ويستطيع سريعًا أن يقول علىّ شرًا . لأن من ليس علينا فهو معنا »[1] . إن من يؤمن بعدالة الله ومحبته التى ظهرت فى المسيح ـــ مهما كان أسلوبه وطريقته فى العبادة والصلاة ـــ فهو يتبع الحق . هناك من نعتبر أن الحق لديهم غير ظاهر ، لأنهم غلّفوا إيمانهم بالتقليد أو غلّفوه بالفوضى الضاربة فى العبادة . لكن هذا لا يعتبر نقصانًا فى الحق بقدر ما هو اختلاف فى التطبيق . ولا نستطيع القول عن أى شخص أو جماعة أدركوا محبة الله وعدالته ، وطبقوها حسب إمكانياتهم الفكرية وتقاليدهم وأعرافهم الاجتماعية ، أنهم مارقون ـــ ولكننا نقول إنهم مختلفون . فنحن أحيانًا لا نقبل أسلوب معين من العبادة أو من اللباس أو الطعام ... وأحيانًا نختلف عن الآخرين فى مشاعرنا وأحاسيسنا وميولنا . كل هذه أمور نسبية لا يمكن أن تكون مطلقة ، ولا تلبس ثوب الحق المطلق . فالحق مضمون ، يلبس أشكالاً كثيرة حسب موقعه . فهناك فى الحياة دائمًا ما هو نسبى وما هو مطلق . فسرقة بنك أو قتل إنسان ، سواء فى شرق الكرة الأرضية أو غربها ، خطأ واضح وجريمة نكراء ، وهى قيمة إنسانية مطلقة ، لا تتأثر بالمكان والزمان ونوعية الإنسان . أما ارتداء البنطلون أو الشورت أو الجلباب ، فأمور نسبية . فالثياب الغربية ليست ضد الدين ، كما أن الإحتشام الزائد ليس مع الدين ؛ إنها حضارة وتقاليد وأسلوب حياة . الحق ثابت وأبدى ، لا يعتمد على حضارة نوعية أو لغة ، أو ظروف اقتصادية أو اجتماعية . أما ما يغلّف الحق من تقاليد وأعراف وأشكال مختلفة فهى أمور نسبية . يقول بولس الرسول الذى حمل الحق على كتفيه ، كيف أنه وضع الحق فى أشكال مختلفة حسب البيئة والتقليد ، لكى يكون مقبولاً من الناس ، فى الوقت الذى لم يتنازل فيه عن جوهر الحق ومضمونه . فقد

---

(١) مر ٨ : ٣٨ و ٣٩

كتب يقول : « فإنى إذ كنت حرًا من الجميع استعبدتُ نفسى للجميع لأربح الأكثرين ، فصرت لليهود كيهودى لأربح اليهود . وللذين تحت الناموس كأنى تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس . وللذين بلا ناموس كأنى بلا ناموس . مع أنى لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس المسيح . لأربح الذين بلا ناموس . صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء . صرت للكل كل شيء لأخلِّص على كل حال قومًا »[1] . **والحق ليس فقط واضحًا ومحددًا ومطلقاً ، لكنه أيضًا يصنِّف البشر** . فالحق بطبيعته يُظهِر معادن البشر ويصنِّفهم . فالمسيح يقول إن هناك كثيرون يقبلون إلى الباب الواسع المؤدى إلى الهلاك ، وقليلون الذين يعرفون الحق . ويقول أيضًا هناك أنبياء كذبة وأنبياء غير كذبة . هذه التفرقة فى الكم والكيف مصدرها الحق . فمن خلال رد فعل البشر من نحوه يصنفهم تلقائيًا : هناك من يرفض ، وهناك من يقبل ، وثالث يقف على الحياد ، ورابع يأخذ شكل الحق من الخارج ، ومن الداخل يكون ذئبًا خاطفًا . إن الحق يضع كل واحد فى مكانه ، ويصفه بالوصف المناسب له . وإن كان يصعب على الناس سماع الحق وقبوله ، إلا أنه رغم هذا — يصنفهم من ابن للحق إلى رافض له ... إلى نبى كذاب ، وببساطة يستطيع الإنسان أن يتعرَّف على هؤلاء ويميِّزهم .

إلا أن الحق يمكن أيضًا أن يُلوَّث . يقول المسيح « احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة من ثمارهم تعرفونهم »[2] . وهو هنا يعلن بكل الصراحة والوضوح أن الحق يمكن أن يلوَّث وأن يشوَّه . فهناك من يستغل كلمات الحق والبنوَّة والشرف بأسلوب غير صحيح ومزيَّف ، وهناك من يلوى الحقائق مدعياً الحق . فالإنسان الذى

---

(١) ١ كو ٩ : ١٩ — ٢٢

(٢) مت ٧ : ١٥ و ١٦

يفسرٌ الكلمات المقدسة حسب هواه أو حسب فكره الشخصى أو بمكر ؛ يأخذ ظاهر اللفظ ليؤكد فكرة لديه ، إنما هو يلوِّث الحق . ومن يحاول تفسير الكلمة المقدسة أيضًا عن جهل بها وعدم إدراك ، يلوث الحق الإلهى ، لأنه يتعدى على كلمة الله ، دون إدراك أو فهم . وهؤلاء الناس يأتون بثياب حملان ، بكلام ناعم يبدو منطقيًا ومعقولاً ، ولكن بالتأمل والتعمق فى أفكارهم نجد أن كل همهم هو هدم الحق وتلويثه . ولذلك يكمل المسيح كلماته بالقول : « من ثمارهم تعرفونهم » . أى أن هؤلاء الذين يلوِّثون الحق ، تستطيعون أن تكتشفوهم بسهولة ، إذا نظرتم إلى ثمارهم ثم يقول « هل يجتنون من الشوك عنبًا أو من الحسك تينًا . هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارًا جيدة وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارًا ردية »[1] . إن الثمر يبيِّن نوعية البشر ، سواء الذين يتبعون الحق أو الذين يلوثونه . فالذين يتبعون الحق ، يعملون لأجل الحب والسلام ، يكونون نورًا للعالم وملحًا للأرض ؛ لهم طعم ولهم بصمات ولهم ثمر . أما أولئك الذين يلوِّثون الحق فلهم ثمارهم أيضًا ، من التعصب الأعمى والجهل والسطحية وسريان الكراهية فى وسط المجتمع . وهكذا يستطيع الإنسان أن يميزهم بسهولة .

إلا أنه من ملامح الحق البارزة أن أساسه ثابت ومتين يقول المسيح : « كل من يسمع أقوالى هذه ويعمل بها أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر . فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبَّت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط . لأنه كان مؤسسًا على الصخر »[2] فالحق يثبِّت الإنسان . فالإنسان الذى لديه الحق ، يستطيع أن يتصدى لكل حملات التشكيك من مطر وأنهار ورياح ، من ضيق وألم واضطهاد . إن رياح الشك تريد أن تصدم الحق وتسقطه ، تريد

---

(١) مت ٧ : ١٦ و ١٧

(٢) مت ٧ : ٢٤ و ٢٥

أن تعصف بالحق فى دواخلنا . والإنسان المؤسس على الصخر ، سوف تتحطم كل الشكوك والأمواج عند قدميه . الخطورة هى أن نفكر بأن إيماننا شيء قديم ، عفى عليه الزمن ، ويجب أن يتجدد ، مع أن الحق هو هو أمسًا واليوم وإلى الأبد . إنه الحق القديم والجديد . كم نحن فى حاجة إلى نوعية من البشر مؤسسة على الصخر قادرة على الصمود أمام كل حملات التشكيك . **فالحق له قوة كامنة فى ذاته** ، فلا يحتاج إلى من يدفعه . إنما يحتاج ـــ فقط إلى من يتبناه ويقوله . يقول متى البشير : « فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بهتت الجموع من تعليمه »[1] فالحق له قوة فَعَّالة داخلية . كل ما علينا ، هو أن نعلن الحق بصدق وإخلاص دون أن نخجل منه ، وهو كفيل أن يؤدِّى عمله ، بلا شك . يقول زكريا النبى : « هذه هى الأمور التى تفعلونها . ليكلِّم كل إنسان قريبه بالحق . اقضوا بالحق وقضاء السلام فى أبوابكم »[2] . ويقول عاموس النبى « وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم »[3] . ويقول بولس الرسول : « لأننا لا نستطيع شيئًا ضد الحق بل لأجل الحق »[4] . فالحق هو روح الله ويقول عنه المسيح : « روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه . وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم »[5] .

وهكذا نرى أن الحق مطلق غير نسبى ، واضح ومحدد . كما أنه يصنِّف البشر حسب موقفهم منه . إلا أنه يمكن أن يلوَّث بأفكار البشر وأغراضهم الشيطانية . وهؤلاء يمكن كشفهم بسهولة من ثمارهم . إلا أن أهم ما يميز

---

(١) مت ٧ : ٢٨

(٢) زك ٨ : ١٦

(٣) عا ٥ : ٢٤

(٤) ٢ كو ١٣ : ٨

(٥) يو ١٤ : ١٧

الحق أن قوته في ذاته ، لا يكتسبها من خارج . وأنه يستطيع أن يصمد أمام أي شكوك أو افتراءات .

الفصل الثانى عشر

حامل الحق وحامل الزيف

تحدثنا فى الفصل السابق عن الحق مجردكا ، وتعرفنا على ملامحه ومصادر قوته وإمكانية تلويثه وثباته . لكن هل يمكن فصل الحق عن الإنسان ؟! بمعنى هل الحديث عن الحق مجردًا عن إنسانية الإنسان حامل الحق ، يعتبر حديثًا متكاملاً وألا يُعتَبر فصل الحق عن الإنسان فكرًا فلسفيًا مجردًا ، لا يقف على أرض الواقع ، ولقد كنت أتعجب كثيرًا وأتضايق وأمل من كثرة الأسماء المذكورة فى الكتاب المقدس ، وأسأل نفسى ما هو السبب الذى يجعل الكتاب المقدس مملوءًا بالاسماء ؟ ألا يكفى أن يذكر التعليم ويعلن الحق . لكننى إكتشفت أن الله يريد أن يعلمنا شيئًا هامًا جدًا ، هو أننا لا يمكن فصل الحق فى عظمته وسموه ، عن إنسانية الإنسانْ . فالحق بدون إنسان مجرد تعاليم سامية جامحة غير قابلة للتطبيق . والإنسان بدون حق كائن بلا قيمه حقيقة لوجوده . إن الروح القدس الذى ذكر لنا أسماء التلاميذ الإثنى عشر الذين فتنوا المسكونة ، يذكرهم فى ضعفهم وفى تطورهم الفكرى والنفسى والروحى . وهو بهذا إنما يشير إلى عملية التجديد العجيبة التى تحدث عندما يحل الحق فى الإنسان ، أو عندما يقبل الإنسان الحق ، فيتحول من إنسان عادى ضعيف إلى حامل للحق ، يجسد الحق ويتطور معه .

ولذلك ذكر لنا الكتاب عن زنى داود وإحباط أرميا وغضب إليشع ، حتى لا يظن البشر العاديون أن هؤلاء الناس من معدن مختلف فيحجمون عن الدخول فى علاقة مع الله ، ويحجمون عن حمل الحق ، وإعلانه بقوة .

والسيد المسيح عندما اختار تلاميذه من الناس العاديين أراد أن يعلّمنا أنه من المستحيل فصل الحق عن الإنسان . فالحق دون إنسان مستحيل التطبيق ،

كما ذكرنا من قبل . إننا كثيرًا ما نتصور أن الحقائق الإيمانية يجب أن يحققها الإنسان ، كأن هذه الحقائق برامج ، ونتصور الإنسان كمبيوتر ، ونتناسى الابعاد الإنسانية والفكرية لكل فرد مخلوق ، واختلاف البشر فى قدرتهم على التلقى والهضم والخلق . ولذلك فقد رفض المسيح أن يدين الإنسان أخاه ويحكم عليه — كالله — بالمروق أو الصلاح دون استماع إليه وتقديره ، لأن الإنسان عندما يدين ينظر إلى جانب واحد فقط هو الحق فى سموه ، ويقيس عليه الإنسان الآخر . أما الله فعندما يدين فهو ينظر إلى سمو الحق ، وإنسانية الإنسان . **فالحق يحتاج لأشخاص يؤمنون به . والأشخاص يحتاجون لحق يعيشون له . فمن المستحيل فصل الحق عن الانسان .**

والحق يغير الإنسان ويسمو به : لقد حوَّل الحق سمعان إلى بطرس ، ومتى العشار إلى متى الرسول ، فالحق هنا قام بعملية تصحيح وتغيير فى داخل الإنسان وخارجه . فالحق مبادىء واضحة يضبط الإنسان نفسه عليها . ولذلك فهو يحتاج إلى تدريب يومى ، ليكون أكثر ملائمة للحق . وهنا يقوم الحق بعملية كشف لحقيقة الإنسان ومواجهته بهذه الحقيقة ، ثم يضع نموذجًا لما يجب أن يكون عليه ، ثم يقوم بتدريب الإنسان للنمو فى الحق . والذى يقوم بهذا هو روح الحق الذى يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . يقول الله فى القديم : أنا إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، إله أحياء وليس إله أموات . فالذى يريد أن يسلك معى فليكن حيًا متحركًا قابلاً للتطوير والنمو . ويقول المسيح : « أنا هو الطريق والحق والحياة »[1] فالمسيح هو الحق الذى يجب أن نضبط حياتنا عليه . وكل تقدم ورفعة وسمو فى حياة الإنسان جاءت نتيجة محاولة الإنسان لتحقيق الحق . ففكرة حقوق الإنسان والمساواة بين البشر فى اللون والجنس والدين ، والعطاء وبذل الذات والغفران ، فى المجتمع

---

(١) يو ١٤ : ٦

الإنسانى ... كل هذه جاءت نتيجة محاولات فى الإنسان للوصول إلى الحق الكامل . فالنماذج التى نراها فى المسيح وأغسطينوس وأثناسيوس ولليان تراشر وغيرهم من البشر العاديين ، الذين يعيشون بيننا فى حب وعطاء ذات ، إنما يحاولون أن يضبطوا حياتهم على نغمة الحق .

وكما أن الحق يسمو بالإنسان فالإنسان أيضًا يقوم بتجسيد الحق وجعله ممكنًا . فموت المسيح وقيامته ، كان من المستحيل أن يصل إلى العالم كتعليم أو حق مجرَّد . لكن عندما حمل هذا الحق رجال عاشوا الصليب فى حياتهم ... « حملوا الصليب » واتجهوا إلى العالم مسحاء يحملون صلبانهم . تجسد الحق فى حياتهم ، حتى آمن العالم بهم . لقد قدموا الصليب بحياتهم ، وكل واحد منهم جسّد الحق فى حياته باسلوب يختلف عن الآخر : فبطرس جسد الحق بأسلوب يختلف عن إندراوس وعن يعقوب أو يوحنا .. فكل واحد منهم جسّد الحق كما رآه وغاشه بحسب تكوينه الشخصى إلى أناس بحسب إحتياجاتهم ، دون تنازل عن مضمون الحق المطلق .

إن مشكلة حاملى الحق اليوم أنهم يقدمون صلب المسيح كأفكار وكلمات . ولكن هذا الحق من المستحيل قبوله ، بمجرد كلمات أو منطق أو عقل . إن هؤلاء فى حاجة لأن يتعلموا كيف يجسدون الحق فى حياتهم ، فيصل إلى الناس بسهولة وسلاسة . **فالإنسان ليس فى حاجة لأن يملأ ذهنه بالأفكار ، بقدر ما هو فى حاجة لأن يرى أفكارًا متجسدة تسير على قدمين .**

ــ الإنسان وإساءة استخدام الحق :

لا شك أن هنالك كثيرون من البشر مخلصون فى حمل الحق . لكن هذا لا ينفى أن هنالك عددًا من البشر أساءوا استخدام الحق ، فلبسوا ثيابه واستخدموه لتحقيق أغراض خاصة ، مثل مكسب مادى أو اجتماعى ، وأضلوا خلفهم الكثيرين . ترى كيف نتعرّف على هؤلاء ونكتشفهم ؟! هذا ما يعلّمه لنا السيد المسيح عن كيفية التفرقة بين حامل الحق ومزيِّف الحق ، أو كيف

نكتشف كذب المعلّم .

يقول السيد المسيح ، **إننا نكتشف كذب المعلم من كذب رسالته ، فيقول** : « احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة »[1] . وأيضًا « كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة . فحينئذ أصرّح لهم إنى لم أعرفكم قط . اذهبوا عنى يافاعلى الإثم »[2] .

وكذب الرسالة يتضح من مدى مطابقتها لكلمة الله التى أوصى بها منذ البدء لأنبيائه ، فى تسلسل واضح وبطريق تصاعدى . فالمعلم الذى يكرر رسالة جاءت من قبل ليس بالمعلم لكنه مقلّد ، لأنه لم يأت بجديد فى الطريق التصاعدى لوحى الله . فقد بدأ الوحى ، بالوحى الشفهى من آدم إلى موسى ، ثم بالوحى المكتوب من موسى إلى المسيح ، ثم بالوحى المتجسد فى المسيح : « الله بعد ما كلّم الآباء بالأنبياء قديمًا بأنواع وطرق كثيرة ، كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى ابنه الذى جعله وارثًا لكل شىء الذى به أيضًا عمل العالمين »[3] . فالوحى تدرج من وحى شفهى إلى كتابى إلى متجسد . والأحكام تدرجت من عين بعين وسن بسن ، إلى تحب قريبك كنفسك ، ثم إلى أحبوا أعدائكم باركوا لاعينكم أحسنوا إلى مبغضيكم .

ولقد حدث كثيرًا فى تاريخ شعب الرب أن ظهر أنبياء يقطعون هذا التسلسل الإلهى والتصاعدى ، ويرتّدون إلى تعاليم الخلف ، ويرجعون بالإنسان إلى دائرة أو مرحلة تخطاها من زمن بعيد فى علاقته بالله . وقد قال الله عن هؤلاء « لم

---

(١) مت ٧ : ١٥

(٢) مت ٧ : ٢٢ و ٢٣

(٣) عب ١ : ١

أرسل الأنبياء بل هم جرَوْا . لم أتكلم معهم بل هم تنبأوا ، ولو وقفوا فى مجلس لأخبروا شعبى بكلامى وردوهم عن طريقهم الردىء وعن شر أعمالهم ، ألعلى إله من قريب يقول الرب ولست إلهًا من بعيد ... قد سمعت ما قالته الأنبياء الذين تنبأوا باسمى بالكذب قائلين حلمت وحلمت ... حتى متى يوجد فى قلب الأنبياء المتنبئين بالكذب ، بل هم أنبياء خداع قلبهم ... النبى الذى معه حلم فليقص حلمًا ، والذى معه كلمتى فليتكلم بكلمتى بالحق ... ما للتبن مع الحنطة يقول الرب ، أليست هكذا كلمتى كنار يقول الرب وكمطرقة تحطم الصخر ... وأنا لم أرسلهم ولا أمرتهم[1] .

ويقول بطرس الرسول : « نائلين غاية إيمانكم خلاص النفوس ، الخلاص الذى فتش وبحث عنه أنبياء . الذين تنبأوا عن النعمة التى لأجلكم . باحثين أى وقت أو ما الوقت الذى كان يدل عليه روح المسيح الذى فيهم إذ سبق فشهد بالآلام التى للمسيح والأمجاد التى بعدها »[2] . وأيضًا « عندنا الكلمة النبوية وهى أثبت التى تفعلون حسنًا إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير فى موضع مظلم »[3] .

فمقياس صحة التعليم هو الكلمة المقدسة الموحى بها فى العهدين القديم والجديد . وإذا أردت أن تمتحن صدق معلم من المعلمين ، فامتحن ما يقوله مع الكلمة المقدسة : هل يسير فى الطريق الذى رسمه الله للبشر ؟ هل تتطابق كلماته مع الوحى المقدس ؟ هل يتوافق مع النغم الإلهى المتصاعد ؛ من كلمة شفهية إلى مكتوبة إلى متجسد ؟ هذا هو السؤال وهذا هو المحك .

---

(١) إر ٢٣ : ٢١ — ٣٢

(٢) ١ بط ١ : ٩ — ١١

(٣) ٢ بط ١ : ١٩

ونكتشف كذب المعلم أو النبى من إفتقاده للمعجزة الحقيقية . فكل معلم يأتى بكلام الله ، يؤيده الله بمعجزة حقيقية شكلاً وموضوعًا . يقول السيد : « كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة ، فحينئذ أصرح لهم إنى لم أعرفكم قط » . وهؤلاء أنبياء صنعوا معجزات لكنها غير حقيقية . فقد قاموا بالمعجزة كشكل خارجى ، أو بمعنى أخر استدعوا المعجزة من خارجهم كالحواة . لكن معجزة النبى الحقيقى هى التى تنبع من داخله ، أى يكون هو — كشخص — معجزة فى ذاته .

فى النقاش الحاد بين يسوع واليهود الذين ذهبوا للبحث عنه فى المكان الذى صنع فيه معجزة إشباع الخمسة آلاف رجل ولم يجدوه ، فركبوا مراكب إلى كفر ناحوم ووجدوه فى عبر البحر ، قالوا له : « يامعلم متى صرت هنا » ، فواجههم يسوع بالقول : « الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبوننى ليس لأنكم رأيتم آيات بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم ، اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقى ... قالوا له ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ، أجاب يسوع وقال لهم هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذى هو أرسله . فقالوا له فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك . ماذا تعمل .. آباؤنا أكلوا المن فى البرية .. قال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبى يعطيكم الخبز الحقيقى من السماء ... فقالوا له ياسيد أعطنا فى كل حين هذا الخبز ، فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة من يقبل الىّ فلا يجوع ومن يؤمن بى فلا يعطش ابدًا ... »[1] .

فالمعجزة هنا ليست من عمل يدى يسوع ، لكنه هو فى ذاته المعجزة ،

---

(١) يو ٦ : ٢٥ — ٤٠

وكل معجزة قام بها نابعة من داخله وتشير إليه . فعندما يفتح عينى الأعمى فهو نور العالم . وعندما يقيم الموتى فهو القيامة والحياة . لكن عندما يأتى نبى أو معلم بمعجزة لا يعيشها ولا تعبِّر عنه ، فهذه مأساة وخدعة للبشر . ويقول لهم الله : « لم أعرفكم قط اذهبوا عنى يافاعلى الإثم » . يقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين : « فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصًا هذا مقداره قد ابتدأ الرب بالتكلم به ثم تثبت لنا من الذين سمعوا ، شاهدًا الله معهم بآيات وعجائب وقوات متنوعة ، ومواهب الروح القدس حسب إرادته »(١) .

وهنالك علامة أخرى يقدمها لنا المسيح ، من خلالها نكتشف النبى المزيف من الحقيقى ، وهى معرفة نسب النبى . فهو يقول « احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان » . وبمحاولة كشف أصل النبى ، نستطيع أن نكتشفه . فمنذ أن اختار الله إبراهيم وضع النبوة فى نسله ، إسحق ويعقوب والأسباط . ولذلك استمرت شجرة النبوة تطرح من داخل هذه الأسرة . ولذلك قال موسى لشعبه : « يقيم لك الرب إلهك نبيًا من وسطك من إخوتك مثلى . له تسمعون »(٢) . ويقول الرب « أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به »(٣) . وهذا التحديد لا يقلل من عظمة من قاموا بالإصلاح الاجتماعى ونادوا بالعدالة الاجتماعية والسلام والحب بين البشر . فغاندى ــ مثلاً ــ فعل فى الهند ، ما لم يفعله كثير من الأنبياء . وكارل ماركس قام بثورة اجتماعية ضخمة . وأفلاطون وشيشرون وغيرهم . وبمجىء المسيح اكتمل الوحى المكتوب ، وفيه جاء الوحى المتجسد ، وانكشفت كل الأسرار والإعلانات ، بالفداء

---

(١) عب ٢ : ٣ و ٤

(٢) تث ١٨ : ١٥

(٣) تث ١٨ : ١٨

والقيامة . وإن كان أصل النبى شىء يُختَلَف عليه ، إلا أن هنالك علامة أخرى للنبى ، **وهى الثمر (ثمر الرسالة) ، إذ يقول المسيح « من ثمارهم تعرفونهم . هل يجتنون من الشوك عنبًا أو من الحسك تينًا »[1] ... وثمر أى نبوة يتركز فى أمرين : الأول ـــ تعليم جديد يقدّم أبعاد جديدة عن الله لم تكن معروفة من قبل ، والثانى ـــ نوعية الأتباع الذين إجتذبتهم هذه النبوة .**

فأى نبى لابد وأن يكون معه الجديد عن جوانب شخص الله السرمدى ، مع إظهار هذه الجوانب للإنسان : إظهار الله فى عدالته ومحبته ، ومعرفة الله بأكثر قرب ولمعان . فالله ، كما قدّمه موسى ، كان أكثر وضوحًا مما قدمه إبراهيم . وكان إيليا أوضح من موسى . ثم جاء إشعياء ليعلن جانب الألم والأحاسيس والمشاعر فى الله ، فكان أكثر وضوحًا . ثم جاء المسيح إعلانًا كاملاً نهائيًا . **لذلك فمقياس أى نبوة هى مقدار ما تقدمه من جديد عن الله فى علاقته بالإنسان .**

أما الثمر الثانى فهو نوعية التابعين . يقول فرانسيس شيفرز : « إذا أردت أن تدرك الفرق بين النبى الآتى من الله ومن يدّعى النبوة ، فانظر إلى التابعين ، فالتابعون هم ثمرة النبوة : فالرسالة الحقيقية هى التى تدعو إلى اتساع الأفق وإلى الثقافة والتحضر ... تدعو إلى الحب والأمانة . الرسالة الحقيقية هى التى تدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة ، فالمرأة لها مكانتها كإنسان عادى . قل لى ما هى مكانة المرأة فى أى مجتمع ، أقول لك مدى تحضره أو تخلفه . إن الرسالة التى تفصل بين الدين والحضارة ، بين ما هو روحى وما هو زمنى ، بين الطهارة الخارجية وطهارة الفكر ، لا شك أنها رسالة إنسانية وليست إلهية . والرب يسوع يقول : « من ثمارهم تعرفونهم » ، أى من مستوى الأتباع

---

(١) مت ٧ : ١٦ ـــ ٢٠

تعرف المعلم ، ومن مستوى الشعب تعرف القائد ، لأنهم ثمرة يديه . الشجرة الجيدة تصنع أثمارًا جيدة . **إن الحضارة الغربية بكل ما فيها وما لها ، قامت على الإيمان المسيحى . وحتى بعد أن اتجهت إلى العلمانية إو إلى الشيوعية ، فما زالت القيم التى تحكمها مثل : المساواة والعدالة الاجتماعية والأمانة فى العمل والانضباط ، قيم نابعة من الإيمان المسيحى . فصانع الحضارة هو الدين . وبالرغم من أن بعض البشر رفضوا الدين ، إلا أن القيم التى غرست فيهم من آلاف السنين ، لا زالت تترك آثارها عليهم . فهى سر تحضرهم ووجودهم كبشر أسوياء . ونستطيع أن نكتشف كذب النبى أيضًا من انفصاله عن كلمته** . فقد قال المسيح ، طوبى لمن عمل وعلم . « كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب يارب اليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة ، فحينئذ أصرح لهم أنى لم أعرفكم قط . اذهبوا عنى يافاعلى الإثم »[1] .

فكلمة النبى أو رسالته يجب أن ترتبط بحياته دون إنفصام . ولقد كان الأنبياء فى القديم يعبّرون عن رسائلهم بحياتهم وبأجسادهم . فمثلاً كانت رسالة إرميا ، أن يتحدث عن السبى ، وأن الشعب سوف يذهب الى السبى . فأتى بنير خشبى ووضعه على كتفيه . وعندما حطّم الملك النير الخشبى وضع نيرًا من حديد وسار به بين الشعب ، يتحدث عن الشعب الذى سيحمل النير فى السبى . وإيليا عاش منتعشًا فى الصحراء ، ليعبّر عن رسالته وهوشع الكاهن تزوج من امرأة زانية كما أمره الرب ، لكى يقدّم صورة حية لمحبة الرب لشعبه رغم زناه ، وكانت حياة هوشع رسالته . لكن إذا جاء نبى يتحدث عن رسالة هو لا يعيشها ، فهو منفصل تمامًا عن كلمته . فالنبى الذى يتحدث عن العدالة والنقاء والأمانة ، عليه أن يعيش هذه الصفات . ويسوع لم يعلّم تعليمًا لم

---

(١) مت ٧ : ٢٢ و ٢٣

يعشه هو أولاً .

ثم علامة أخرى ، هي مدى تحدى رسالته لعوامل الهدم :

فالرسالة التى تقف شامخة رغم كل محاولات الهدم ، رسالة صادقة . الرسالة التى لا تخشى الانتقاد والتقييم المستمر ، فى العهود المختلفة ، هى رسالة مؤسسة على الصخر . فالرسالة الحقيقية لا تحتاج إلى حماية بشر فى مواجهة النقد والتقييم . إن رسالة المسيح لها ألفى عام ، تعرضت فيها وما زالت ـــ لكل معاول الهدم والانتقاد ، حتى فى البلاد المسيحية ، تجد الاذاعة والتليفزيون والصحافة تترك المجال بكل حرية ، لمن يريد أن ينتقد المسيحية أو الكتاب المقدس ، لكن يبقى فى النهاية التعليم الصحيح ، فلا يصح إلا الصحيح ، كما يقولون . يقول المسيح : « كل من يسمع أقوالى هذه ويعمل بها أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر . فنزل المطر وجاءت الانهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط . لأنه كان مؤسسًا على الصخر . وكل من يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها ٭ برجل جاهل بنى بيته على الرمل . فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت وصدمت ذلك البيت فسقط . وكان سقوطه عظيمًا »[1] .

إن كنت تريد ان تكتشف صدق رسالة أو نبوة ، اتركها للناس ينتقدونها ويفسرونها ويحللونها فإن صمدت للنقد واستطاعت أن تقاوم ، تكون رسالة صادقة من الله لا تحاول أن تحميها برجال أو مال أو سلاح ، فالرسالة الصادقة قوتها فى الحق الذى تحتويه .

اخيرًا يمكن أن نكتشف صدق النبى من نوعية السلطان الذى يتمتع به .
لقد بهتت الجموع من تعليم يسوع لأنه كان يتحدث بسلطان وليس كالكتبة .

---

(١) مت ٧ : ٢٤ ـــ ٢٧

والسلطان هنا لم يكن سلطان قوة ، يرغم بها الناس على سماعه ، ولا سلطان نفوذ أو كهنوت ، فيسوع كان إنسانًا بسيطًا . لم يكن من الأسرة الكهنوتية ، ولم يكن زعيمًا يحمل سلاحًا ، لكنه كان يحمل سلطان الكلمة التي يتفوه بها : فهي كلمة الله . يقول المسيح : « خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني »[1] . إن يسوع يعرفنا ولذلك له سلطان علينا .

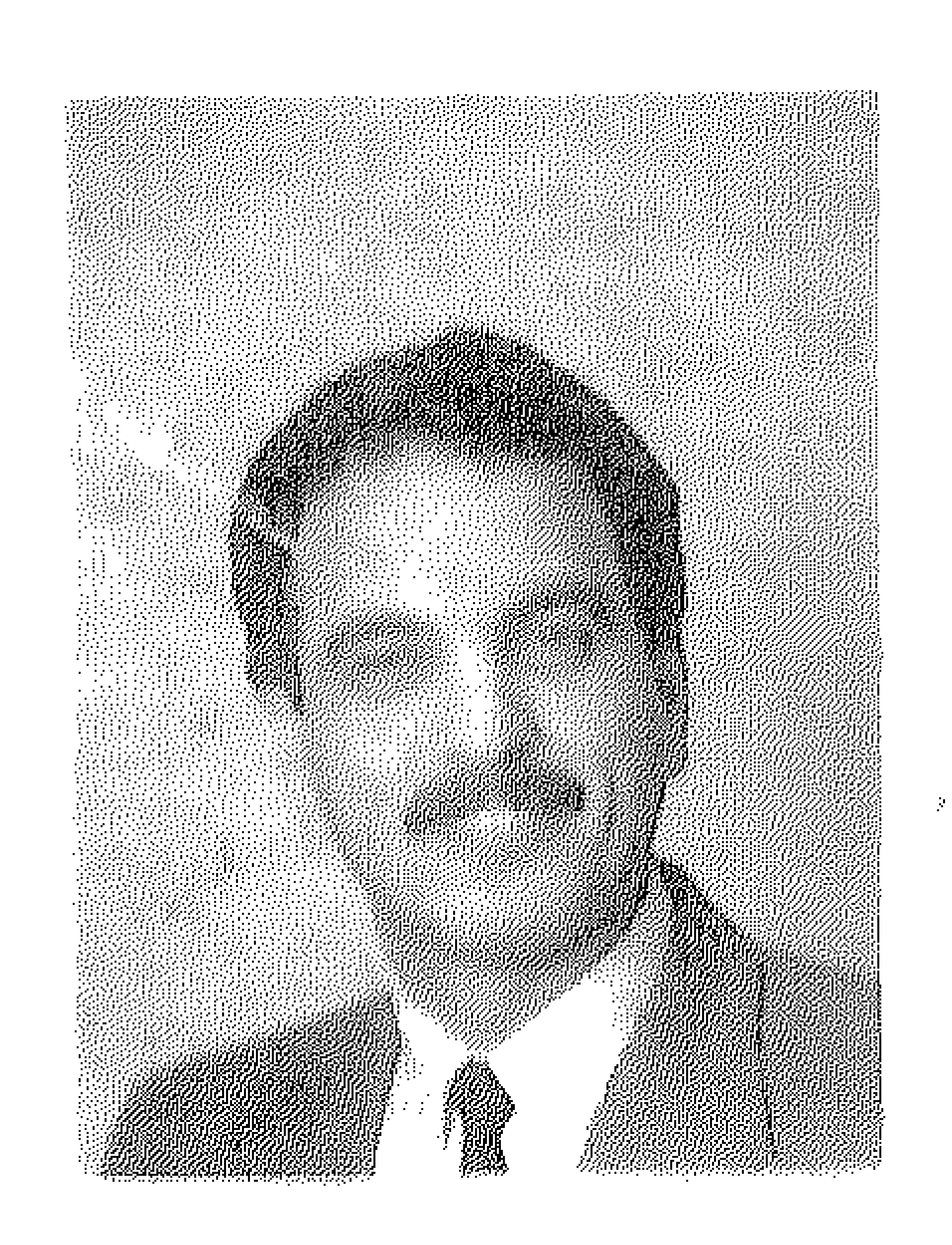
وقف أحد المرنمين العظماء في حفل ضخم ورنم : « الرب راعي فلا يعوزني شيء ... في مراع خضر يربضني ... إلى مياه الراحة يوردني ... يرد نفسي يهديني إلى سبل البر .... أيضًا إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شرًا لأنك أنت معي .. عصاك وعكازك هما يعزيانني .... »[2] ، فاستمتع الناس بها جدًا وصفقوا له . ثم وقف بعده مرنم آخر ورنم نفس المزمور ، إلا أن الناس بكوا جميعًا عند سماعه . قال أحد الجالسين معلقًا : إن الأول يعرف الترنيمة جيدًا ، أما الثاني فيعرف الراعي .. **إن الناس يسمعون ما يريدون أن يسمعوه ، ويؤمنون بما يريدون أن يؤمنوا به ، ثم يعملون ما يريدون أن يعملوه .. لا بالقوة ولا بالقدرة .. لا بالصوت ولا بالصورة ، بل بروحي قال رب الجنود . « فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بهتت الجموع من تعليمه ، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان »[3] .**

---

(١) يو ١٠ : ٢٧

(٢) مز ٢٣

(٣) مت ٧ : ٢٨ و ٢٩

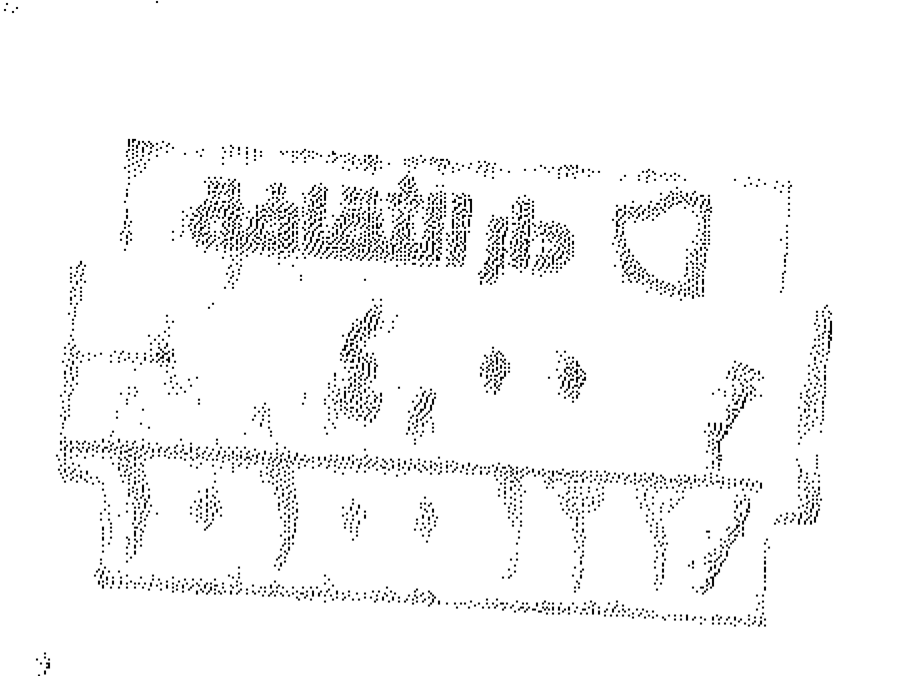


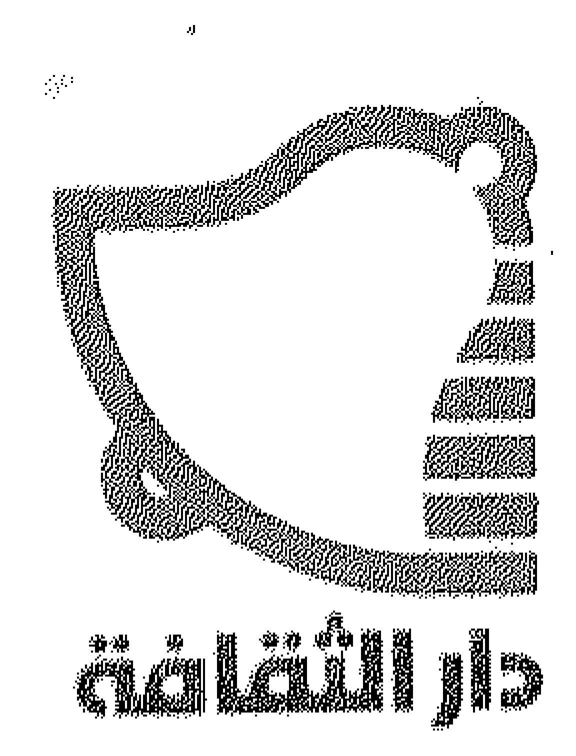
رب سائل يقول : هل تعاليم قيلت منذ نحو ألفي عام تصلح لمعالجة قضايا معاصرة ، مثل العنف ، الديمقراطية ، القلق ، حقوق الإنسان ، العبادة ، الحق ، الجنس ؟!

هذا هو موضوع الكتاب الذى نضعه بين يديك عزيزى القارىء ، تجد فيه رأى الكاتب فى هذه القضايا مفسراً تعاليم السيد المسيح ، مصححاً بعض المفاهيم الخاطئة التى توارثناها .

● الكاتب فى سطور ●

- تخرج فى كلية اللاهوت الإنجيلية سنة ١٩٧١
- حاصل على ليسانس الحقوق جامعة القاهرة سنة ١٩٧٧
- حاصل على الدكتوراة فى موضوع الأديان المقارنة من كلية لاهوت سان فرنسيسكو
- مدير كلية اللاهوت الإنجيلية ويقوم بتدريس مادة الأديان المقارنة





١ . ٢ . . ١ . ١